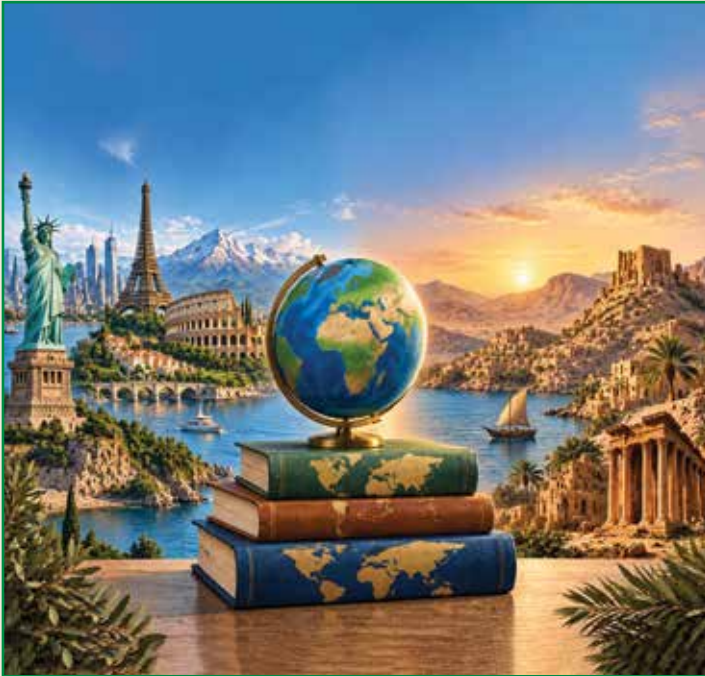


جهد نعمان
غرين كارد
GREEN CARD

إنطباعاتٌ ومُشاهداتٌ مِنْ بلاد النَّاسِ



دار نعمان للثقافة

غرين كارد

GREEN CARD

إنطباعات ومُشاهدات من بلاد النَّاس

Jihad Naaman - GREEN CARD

Tous droits réservés – All rights reserved – Todos los derechos reservados

1^{ère} édition, septembre 2026 - ISBN 978-614-482-057-5



University professor, polyglot

Ambassador of Peace (U.P.F.)

Website: www.jihadnaaman.com

Website of his articles as from 1968: <https://jihadnaaman.com/articles/>

E-mail: jihad@naaman.info - Phone: 00961-3-423542

جهد نعمان فيلسوف الهسي والجوهرد، دكتور في الفلسفة، ودكتور في الدراسات الأوروبية، وحائز كفاءة في الأدب الفرنسي وكفاءة في الدراسات الاجتماعية (فرنسا). واضع عشرات المؤلفات وآلاف المقالات (articles.jihadnaaman.com). وهو أستاذ في جامعات أوروبية ولبنانية وأميركية منذ سنة ٢٣. عمل مستشاراً للرئيس اللبناني شارل حلو وحاز أوسمة رئاسية ودينية. وهو سفير السلام في العالم (U.P.F.). تُرجم له وترجم هو كتباً وافرة، منها أطروحة الدكتور أديب فارس: "الرياض، وثبة ازدهار في الصحراء العربية، بحث تقويمي في تقنية التنظيم المدني وإسهامات المركز الإلكتروني للمعلومات المدنية" (باريس).

التنصيد: أرلات الياس سلامة.

©الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى، أيلول ٢٠٢٦.

دار نعمان للثقافة

ص.ب. ٥٦٧ - جونية (لبنان)

فاكس وهاتف: ٩٣٥٠٩٦ - ٩ - ٠٠٩٦١

Maison Naaman pour la Culture

P.O.Box 567 – Jounieh – Lebanon

Phone: 00961 – 9 – 935096

E-mail: info@najinaaman.org

جهد نعمة

غرين كارد

GREEN CARD

إنطباعات ومُشاهدات من بلاد الناس

دار نعمة للثقافة

للكتب يا رَجُلٌ...

اُكْتُبْ يا صديقي جهاد، لا لأنَّك تُجيد الكتابة، فذلك أمرٌ يعرفه كلُّ مَنْ قرأ لك، بل لأنَّك تُحسن الإصغاء إلى الإنسان وهو يتحدث في أعماقه.

هناك مَنْ يكتبُ ليقالَ إنه كاتب، وهناك مَنْ يكتبُ لأنَّ الصَّمْت لم يعد يتسعُ لما في داخله. وأحسبك من هؤلاء.

لم تكن الكتابة عندك يوماً زينةً للعبارة، ولا استعراضاً للثقافة، ولا رغبةً في إقناع أحد.

كانت، وما تزال، رحلةً شاقّةً في البحث عن المعنى، وعن الإنسان، وعن تلك الحقيقة التي لا تُسلم نفسها إلاّ لمن يقترب منها بتواضع وصبر.

في خواطرك ومقالاتك لا يجدُ القارئ أجوبةً جاهزة، بل يجدُ نفسه. يجدُ أسئلته القديمة وقد استعادت براعتها، ويجدُ ما يدعوه إلى أن يتأمّل أكثر، وأن يُصغي أكثر، وأن يُراجع ما ظنّه يقيناً. ولعلّ أجمل ما في قلمك أنه لا يدّعي امتلاك الحقيقة، بل يظلُّ يرافقها، ويسير إلى جوارها، ويترك للقارئ شرف اكتشافها بنفسه.

لذلك تبدو كتابتك قريبة، صادقة، وإنسانية، لأنها لا تخاطبُ العقل وحده، بل الضمير أيضاً.

ولأنك تؤمن أن الكلمة كرامتها، لم تفرط بها يوماً. كنت، بكل نبل، تتحاشى لصوص النصوص، وتمضي بصمت الواصل؛ فالصمت عندك ليس عجزاً عن الجواب، بل جواب في ذاته.

ولم يكن قلمك يوماً بوقاً لمسؤول، ولا صدًى لسلطة. كنت تخاطب المسؤول كما تخاطب القارئ؛ تحذر حين يجب التحذير، وتنقد حين يقتضي الواجب، من غير خوف ولا مواربة، لأنك كنت ترى أن الكاتب لا يكتمل إلا باستقلاله، ولا يصون رسالته إلا إذا بقي وفياً لضميره.

هذا الكتاب ليس حصيلة سنوات من الكتابة فحسب، بل حصيلة حياة عاشت الأسئلة بصدق، وآمنت بأن الفكر لا يكتمل إلا إذا بقي منفطحاً على الدهشة.

فامض يا صديقي جهاد... واكتب يا رجل!
فما أحوجنا اليوم إلى الكلمة التي تُضيء ولا تُبهر، وإلى الفكر الذي يُصالح الإنسان مع إنسانيته، وإلى قلم يعرف أن أثره الحقيقي لا يُقاس بما يُقال عنه، بل بما يتركه في نفوس قرائه.

توفيق صفيير

إلى الدكتور

جهاد نعمان

لِلْحُبِّ وَجْهٌ أَسِرُّ أَنْ أَكْتَسَى
فِي جَنَّةِ الْعُشَّاقِ ثَوْبًا مُؤْنِسًا
وَالْحُبُّ سِرٌّ بَنَى فِي خَلْقِهِ
رُوحَ سَمَاوِيٍّ فَصَارَ مُقَدَّسًا
وَالْقَلْبُ قَدْ يَلْتَاغُ مِنْ جُمَحِ الْهَوَى
مَهْمَا حَبِيبٌ قَدْ هَدَاهُ النَّزْجِسَا
وَالْقَلْبُ يُضْنِيهِ الصَّرَاغُ إِذَا بَدَا
مُتَكَافِفًا مُتَلَازِمًا مُسْتَشْرِسَا
ضِدَّانِ مُجْتَمِعَانِ فِي طِينِ الْوَرَى
ضِدُّ تَوَارَى أَوْ تَرَاءَى أُخْرَسَا
يَا مَرْكَبًا فِي الْبَحْرِ يَسْرِي هَائِمًا
وَالْحُلْمُ وَعَدٌّ بِالْهِنَاءِ أَلْبَسَا
كَيْفَ اسْتَحَالَ شِرَاعُهُ مُتَمَرِّقًا
وَبَقَيْنَهُ بِالسَّعْدِ بَاتَ تَوَجُّسَا

مُتَأَمِّلٌ سَبَرَ الْحَقِيقَةَ مُدْرِكًا
 أَنَّ الْهَنَا دَوْمًا يُكْبَلُهُ الْأَسَى
 وَمُؤَلَّفُ آلِ "نَعْمَانٍ" غَوْصٌ بَارِعٌ
 وَحَصِيدَةٌ تَمَّ اخْتِزَالُهَا بِـ "الْهَسَى"
 لَيْسَ الْوُجُودُ سِوَى سَدِيمٍ أَوْ غَدَا
 ذَاكَ السُّدَى وَيَظَلُّ فَقْرًا أَفْطَسًا
 مَا لَمْ يُعِرْهُ اللَّهُ جَوْهَرَ وَعَيْنِهِ
 لِيَصِيرَ نَبْضًا مُدْرِكًا مُتَقَرِّسًا
 وَالـ "جَوْهَرُودُ" لَشَاهِدٌ فِي مَنْطِقِ
 يَسْتَلُّهُ فِكْرٌ عَلَيْهِ تَأَسَّسَ
 "نَعْمَانُ"

دَابُّ وَاقْتِضَابٍ لِلْجَنَى
 وَنَرَاهُ مُبْتَكِرًا لِقَاءَ مُهَنْدِسًا
 حُبٌّ إِلَى حُبٍّ وَيُتَقِنُ ذَرَّةً
 لِيَظَلَّ قُوَّتًا لِلْجَنَانَةِ وَمُحْتَسَى

مي أسد سمعان

في ٢٠٢٦/٦/٢٨

بمَثَابَةِ تَمْهِيدٍ

في هذا المؤلف إنطباعات ومشاهدات بين الشرق والغرب،
تجسيداً لفلسفة الهسي والجوهري، أي فلسفة وجودية ملتزمة.
رُميتُ إلى تسليط الأضواء على تجربتي في حلي وترحالي بين
المنطقة العربية ودول الحضارة الغربية.

ليس المقصود هنا صهرُ الأمور ومنها العبادة، في قالب واحد
أو بوتقة واحدة يمجُّها الإنسانُ مع الزمان، بل إنه لا بدَّ من
تنوُّع الأشكال والأنواع، والعوائد الحميدة حتى الدينية منها،
بشرط أن يجمعها جوهرٌ واحدٌ ومبدأ واحد، وهو بلوغ ربِّ
الكائنات بعيداً عن عبادة الأصنام...

الإبداع من وراء البحار!

الإبداع اللبناني في المهاجر، زينةُ تاريخنا الوطني المأزوم، الذي ينبغي ان يتجلى غذاءً لشعورنا الوطني. والشعور الوطني هو أول دافع للمُبدعين بما يخلد ذكرهم تحت كلِّ سماء فيقرأ لهم الشباب وقد يتخذون منهم ومن ثررهم المثل العليا والقُدوة الحسنة.

ما زلنا نودّع الحالمين بالحريات ونستقبل حصراً أولئك الذين غلبهم الحنين إلى حفنة من التراب أو ضمة حبيب. وما يبعث على أشدَّ الأسف والألم، أن نرى "وزارات معنيّة" تهمل، في ما تهملُه، هذا الواقع وما يترتب عنه من ضرورة تغيير في المناهج والأذهان. هكذا، تضيع معالمُ من تراثنا، في حين يتلهّى "مسؤولو" آخر زمان بانشغالات هامشيّة وشكليّة كت تحقيق مطلب نقابي أو عدم تحقيقه والركون إلى التذاكي والتكاذب. لا تحفز هؤلاء الأثباح سوى رغبة الكسب وتحصيل الغنائم وحبّ

الظهور الأزعن، هذا في حين يندمج تقنيُّو بعض الجامعات في بيئاتهم المضيفة.

قدر معظم المبدعين اللبنانيين أنَّهم يولدون من تفاعل إثني-ثقافي و/أو تداخلِ مذاهب، ثمَّ يعيشون في قلق وجودي فيجمعون بين هذه الرِّوافد، ويميلون إلى تجسيد الأتسنة المصفَّاة. ذلك أنَّهم حلَّقوا إلى مهاجر في جزائر المعرفة والطمانينة...

لا خلاص للإنسان إلا بخروجه من ذاته، ولا خلاص من الصراعات الصغيرة إلا بالارتقاء إلى مرتبة الإنسان. فمن لهذا الارتقاء في صفوف رجال معرفة وأفق متعدّد ودمائة صلبة وإبداع جمّ؟

عودٌ على بدء!

إذا شئنا أن نقيم عالماً مسالماً حرّاً، ونجعل تصحُّرنا الذهني يستحيل، كما بعض صحارينّا، إزهاراً، وينمو إنساننا في كرامة، فإنَّنا نستطيع ذلك لا محالة.

إنَّ أنجع صيغة لبلوغ الأهداف المُحيية هذه هي النضال لإحقاق الصدق والشفافية: أن نغدو نزهاء بلا مزاعم قادرين على إدراج ذواتنا العليا في صميم مشاعرنا ونشاطنا ومعتقداتنا.

هدف الحياة أن نتجلى ذوي جدوى من قبل مسؤولين رحماء: أن نكون ذوي شأن فنؤخذ فعلاً في الحسبان ونُعتبر شيئاً ما وقيمة مضافة في بيئتنا وتحت كل سماء.

لا يغدو الإنسان سعيداً ما لم يرتبط بأهداف جامعة شاملة، يسعد باندفاعه إلى نشاط تجديدي مبدع. هذا هو دين الحياة الذي يقضي بأن نحياها في العمق. هل ترانا سعداء فعلاً بالحياة ندرك السلام الداخلي وطمأنينة النفس؟

أتيح لي مجدداً أن أعمل استاذاً زائراً في جامعات أميركية بعيد بلوغي سن التقاعد، والكاتب لا يتقاعد. شهدت أكثر فأكثر بين الناس أمانة مجسّمة وفي الطبيعة جمالاً أخاذاً. خبرتُ لطف المواطنين وتذكرت مسقط رأسي حريصاً، وأخلاقي التي بدلتها الأيام إلى حدٍّ أن المتظاهر بالنزاهة والتقوى والوداعة، ينقلب ذنباً يفتك بمن انتمّنه ووقع بين مخالفه وأنيابه. في بلاد العم سام، تعيش كما يحلو لك أن تعيش تحت سقف القوانين بين اناس طيّبين لا يعرفون الكبرياء ولا الاستعلاء ولا لقمة الحرام. ترى على الدروب من الأزهار أبهاها، ومن الأثمار أحلاها، ولا ترى من يفكر في قطف زهرة، أو في جني ثمرة. فحريّتك في

هذه البيئة الحرة، تمنعك من الاعتداء على حرية غيرك، وتحول بينك وبين الحصول على ما ليس لك.

أين أخلاق نافذينا قبل مواطنيهم وقد تجلّت ذات يوم مضرب المثل في الأمانة ومسالمة الناس؟

علمنا الغرب الاوروبي الحضارة، وألقينا عليه دروساً في الأخلاق الكريمة، فما لنا نرجع القهقري، ونتخلّق بغير أخلاقنا الأصيلة؟

دعونا نرجع، ولو بأخلاقنا، إلى صدر الإسلام على الخصوص، أيّام فتح بعض أسلافنا القلوب بالخلق النبيل قبل أن يفتحوا بلاداً بالسيف الصقيل.

ماذا نحن؟

الحقُّ يحرّرنا جميعاً، لا المساومة. وحده يشفي لربّما أكثر من الصداقة التي تعني الإخلاص وتالياً شيئاً من الابتعاد عن مواطن الحق. وقد يكون الحب العيسوي والحكمة المحمّديّة ذات

يوم متناغمين في الحق بحيث نبلغ صيغة العيش الوطني الواحد الذي لا يفرِّق بين فريق وآخر.

نعيش في حزن عميق على الرغم من مواسم سياحيَّة تُتَّعَشُّ البلاد بكمَّ من العملة الأجنبيَّة. هناك أيضاً خوف كبير على الوطن الصغير القائم بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب وعلى رقعة تتنازع فيها وعليها المصالح والصفقات حتى باسم الدين، وهو منها براء.

ثمة صراع نعيش فيه سياسي المنحى أبطاله غلاة ممَّن لا يشبهوننا. وهناك صراع حضاري نتفاعل معه تفاعلاً غريباً عجيباً. ما هو لبنان سياسياً وحضارياً، تلك هي الإشكاليَّة الكبرى. هل يبقى مجرد ساحة لصراع الآخرين أم رسالة لا نستحقُّها كثيراً وهي تتجاوز الأوطان والأمم؟ أمسى لبنان أشبه بفردوس مفقود وهو قلماً كان حتَّى قائماً فعلاً. وكلُّنا يسلك غير مضاء في متاهات المصير. ما زالت تدغدغنا أحلام لا تتجب والقلوب شبه مدمِّرة لأنَّ أخي ليس معي.

فهل نبقى أصحاب نزواتٍ بعيداً عن كلِّ خطاب عقلي؟ هل ننسى أنَّ الحياة كلُّها هي فنُّ الممكن تماماً كما السياسة؟

سياساتنا والجوهرود!

يسود مجتمعنا حسدٌ يجلبُ مزيداً من التعاسة، وخصوصاً في صفوف "المسؤولين" ولا مَنْ يسأل. يدوسون الكرامة البشريّة من أجل منصب أو حفنة من الدولارات.

استنشقوا طعم الدناءة والانحطاط واستهانوا بالذمم. ارتضوا المذلة واللؤم وما إليهما. وجدوا من رضي بأن ييخرّ الأصنام ويمدحهم في حين أنّ المدح في بلاد الناس من سقط الشيم.

سياساتهم لا تزال تتبثق، بعكس المصطلح في اللغات الأجنبية – التي تعني التمنن والتعذيب – من فعل ترويض كل كائن حي ولا سيما الدواب!

خطيئة الغفلة معصية كالارتكاب، فمتى يستيقظ النائمون أو "المتناوِمون"؟ هل ضُربت قلوبهم؟ هل شعبنا بأسره مُرجى خلاصه؟ المُرجى لا يؤمن بنجاته اليوم، وهذا كفر، فهل ترانا نفرغ الزمان الحاضر من وجه الله فيما نتحدّث باسمه؟

يجب أن نلجأ إلى الإرشاد والتوجيه والقلم المبدع النزيه ونثور كالبركان نقذف بحممننا ونذري للجهاد الحق لا نرهب فيه أي خطب.

الكذب تحكَّم في معظم "الكبار" قبل "الصغار" فراحوا يلهثون وراء المال الحرام وتسئمُ المراتب ولو جوفاء رعاء. أغلقوا على أنفسهم بعدما أوصدوا الباب. يحدِّق أحدهم بالآخر فيجسّد قول الفيلسوف الوجودي سارتر "الآخر هو الجحيم"، ولكنهم ينسون أنَّ الاختناق زاحف لا محالة وسيودي بالجميع، وقد يصيبهم قبل سواهم فننساهم كما ننسى الكابوس.

ليرفعوا أيديهم عن الشرفاء العقلاء لئلاً يدمّر الوطن. لقد اكتفوا بالاستلذاذ بالدم والانتفاخ الطوائفي وقهر الإنسان الطيّب الوديع حتى العدم الوجودي بل الكياني!

هم... ونحن!

ينبري أحد "مسؤولينا" الذين قلَّمَا يُسأل فيُجيب، أحياناً، للقول إنَّ "تظيره" الفرنسي أو المصري... التمس منه رأيه حول مسألة ما! ونشاهد على قنواتنا التلفزيونية "وزيراً" يؤكدُ أموراً لا قيل له بها ولا علم ولا مَنْ يحزنون، في حين أنَّ "زميله" في وزارة "شقيقة" يُبدي تحفظاً ما على الرغم من تمتعه بكل الرجولة وقوة الاحتمال ومعاني الحمية والمروءة وحب الإصلاح.

وزارة خارج الحدود يعتبر المسؤول عنها أنَّها وسيلة لتطبيق القانون ونشر الوعي وتوفير حماية للجميع، ومثيلتها في بلادنا أشبه ما تكون بمقعد وثير في برج عاجي ناءٍ عن عيون ذوي الحاجات وطلاب العدالة الاجتماعية الشاملة...

ترى في بلاد الناس مسؤولاً على سجيته السمحة حين تقابله، وتشعر بأنك أمام إنسان لم يغيِّره المنصب، بل أبقاه على أصالته وأريحيته الفطرية ولطفه المتألق بالأدب الرفيع وسمعته العطرة بأريج مقطرٍ من أزهار المكرمات. ونعاني في ربوعنا بل مجاهلنا، الأمرين في سبيل الاجتماع بأحد المتربِّعين على عرش الجهل والتجاهل والتجهيل.

وراء كل زعيم عندنا مجتمعات بائدة أحياناً، وحسبك أن تتنقَّى
خطى سياسي أجنبي ليتأرَّج منه الطيبُ ويسكر الشميم وينطلق
لسانك إعجاباً بالإنسان الحرَّ الكريم.

زعماء متوارثون يتقاذفون التَّهم نفسها والشتائم عينها ولو أمام
الشاشة الصغيرة، ويسعون وراء مصالحهم الشخصية أو الفئويَّة
وإنَّ على حساب مصلحة الدولة العليا، ولدى الناس في بلادهم
عزَّة واهتمام بشؤون المواطنين وشجونهم، فتراهم يعملون
لعونهم وإسعافهم إذا تعرَّضوا للخطر، بل إنَّهم يستدركون
المتاعب قبل حدوثها. فهل ترانا ننتظر شيئاً من شبابنا؟

واتلفازاه - ١

أعضاء التَّفاز تتلأل في الآفاق العابسة، وإنَّ هي عكستها
أحياناً! تضحك ليالينا وتعرض على نواظرنا مشاهد باهرة
وروايات صاخبة، وتحمل إلى آذاننا ألحاناً. والشاشة الصغيرة
أمامنا كعبد من الجن أمين، يسكت إن آثرنا السكوت، ويتكلم
بألف لسان ولسان، إنَّ أحببنا البيان.

هوذا عصر التَّفَاز وما إليه. إِنَّه عصر غريب عجيب أَبَتِ
الأسنة إِلَّا أَنْ تَسْمِيَه عصر المدنيَّة والتَّقدُّم وتَفْتُحْ أذهان أطفالنا
الطَّريَّة. وأبى المنطق السليم إِلَّا أَنْ يَسْمِيَه عصر الوحشيَّة
والنَّقَهَر.

أبعدتنا الشاشات عن جلال السكون، وظلال الراحة، وخميلة
الطمأنينة، لتدفعنا في معترك الشغب وغمرة التعب وجحيم القلق
والاضطراب.

خلع التَّفَاز قميص العِفَّة وثوب الرحمة ورداء المكرمات،
ليَتَعَرَّى على مسرح التَّرَهَّات والشهوات.

داس التَّفَاز تيجان الحكمة وجواهر الفلسفة ومطارف العزَّة
والشرف والفضيلة، ليَقْلَبْنَا على أحذية الجهالة وأسمال الإذلال.

نَبَذَ التَّفَاز أقوال الأنبياء والرسل ليَتَمَسَّكَ بمبادئ الأنانية
والطغيان وليَتَنَاحِرَ في ميدان التعصب المقيت، باسم الدين
والإيمان.

أعطانا الأنوار الباهرة وأخذ منا المروءة والإباء. أهْدَى إلينا
الروايات الأجنبية واغتصب مِنَّا لَهْوَنَا البريء وليالينا المملوءة
بالسَّمَرِ الشَّقِيقِ والأحلام العذاب. أَنَالْنَا الحرية المتطرِّفة المُتَخَذِقة
المرتھنة ولو بالمشاهد العابرة المحيطات، ليسلبنا لؤلؤة الحياء
والكرامة.

هناك برامج تستحمُّ في حوض المادَّة، وتتنشَّف بملاءة الخلاعة،

وتتعرَّطُ بعَبَقِ الخمر، وترقص في مسرح اللذات والمطامع،
وتترامى على فراش المنكرات.
أشخاص ماجنون أخذوا ثياب الحرائر ووقفوا أمام مرآة
الابتكار، فوضعوا القميص مكان الرداء والقبعة موضع الحذاء!

واتلفازاه — ٢

على النَّفَّاز أشخاص يتتابعون ويتشابهون ويتصابون، يهفون
إلى الشباب والجمال، فيتزيَّنون بحلى التمويه ويتكحلُّون بأنثمد
الكبرياء. يصبغون خدودهم الذابلة وشفاهم الباهتة بحمرة
الغرور، ويسيروا في معرض التبرُّج، مُتَفَخِّين مُتَطَوِّسين،
مُتَطَلِّعين بأطراف عيونهم ليروا كيف يرتمي وراءهم ويتحلَّق
حولهم عشاق بهائم وأسرى هواهم.

يعتروُّون بالمظاهر ويعشقون المساهر، فالذهب الوهاج والألوان
الزاهية، تسطو على العيون، قبل أن تمحص العقول ما وراء
اللمعان وروعة الألوان.

يعترفون من الثقافة وهماً ويشربون من التقليد سمّاً أو بلادة.
يلتهمون ثمار الفكر والسياسات، بلبابها الفجّة وقشورها الصلدة.

فيحسُّ المشاهدون بتخمة مؤلمة تمزق أحشاءهم وتقضي على راحتهم المنشودة.

يُقبلون على الشهرة إقبال الفراشات على اللهب، فتحترق منهم جماعات وتتساقط منهم جماعات، وتبقى جماعات تدور في فضاء التيه والحيرة فلا تهتدي!

لم تستطع شاشاتنا عموماً أن تمحو آثار الشرور، ولا أن تقضي على شياطين المآثم والفواجع، ولا أن تستأصل جذور الخزعبلات والفظائع، فإنَّك لتجد في نطاقها وحشيّة العصور الحجرية واستبداد القرون الوسطى ومجازر جديدة مبتكرة. إنها، بوجه عامّ، تعبد المال والجاه والقوة، وتعبد نفسها أولاً.

زخرفات باطلة وأناس يصفقون مع المصفّقين ويرقصون على قرع طبول المُطبّلين، من غير أن يعرفوا، لماذا يصفقون ويرقصون.

شعوزات تضحك وتبكي، تنال ممّا بقي من عزّة شعبنا، وتجرح ما ترك لهم "مسؤولون" من رفعة وسلامة. جميلات يمسين بين ليلة وضحاها ممثلات و/أو مذيعات وكذلك أزواجهنّ وأبناء الحي القريب.

حفنة من أناس يكرّم بعضهم بعضاً في ظلّ فوضى منظّمة وفقدان المعايير، يتداولون شاشاتنا بلا رقيب ولا حسيب في ظلّ زكاكة بل رطانة ونغولة لغويّة.

وضع معظم شاشاتنا الصغيرة، يحتاج إلى صبر جميل، ولا بدَّ من التواصل معها والتعايش أحياناً حتى يهدي ربُّك مَنْ يشاء!

تِلْفَازُهُمْ وَتِلْفَازُنَا!

سَمِئْتُ "تكاليف" تِلْفَازُنَا منذ ربيعي العشرين!
قنوات النَّفْزة عموماً تخندقُ سياسيَّ
قنوات النَّفْزة تخوين وأتَّهام وليست تقابل آراء ومواقف
القنوات استفزاز ووعيد وليست عرضاً ووعداً
قنوات تفرع طبول الحروب وعند الآخرين تناغم على وتر
الطمأنينة والسلام
قنوات تعكس الاصطفافات الطائفية وعند الناس تعبير عن
طقوس متعالية
قنواتنا مسلسلات بهذه اللغة أو تلك ولدى بلاد النَّاس بضاعة
محليَّة
من جهة زحف وراء دُرْجة من هنا أو هناك ومن جهة تمسُّك
بالمحليِّ الأصيل

من جهة برامج يتكهن المشاهد آخرها من أولها ومن جهة
تشويق حتى النهاية

من جهة لهجات محلية وإقليمية بل خليط لغات، ومن جهة لغة
ناصعة

ثمة عدااء عندنا بين المتكلمين والفصحى في حين غلبت عندهم
البلاغة الكتابية

قنواتنا تفرق وقنواتهم تسعى لتجمع ما أصدره الدستور
والقوانين

لا يضطلع أقطاب الشاشات الصغيرة بغير دور استعراضي
وعندهم يقوم كل بدوره

سرٌّ مقدّمى البرامج حصراً المال والجمال "والعلاقات"، وسرُّهم
في نجاحاتهم

ذهن استعراضيين يشرد وعارضو برامجهم لا يشرد ذهنهم ولا
ذاكرتهم تخونهم

يستطرد المتحدث في قنواتنا المتهاكة إلى تفاصيل حياته
الشخصية المملة ويواصل المتحدث في قنواتهم سيره بسرّاه، في
سبيل قدسية الكلمة، ليس طلباً للمال "عصب الحياة"، وإنما
لعرض مقتضب امام مُشاهد منهوك، فيجسّد مبدأ "خير الكلام ما
قلّ ودلّ".

الإعلام عموماً والتلفاز خصوصاً باتا السلطة الأولى. ولمّا

زاولتهما منذ أمد بعيد ولم يتغيَّر شيء، سعيت شيئاً فشيئاً ما وراء البحار للحفاظ على جودتهما وصدقتهما واستشرافتهما أكثر وأكثر لعنَّا نربح الرهان على لبنان!

حتمية التغير!

البشر أحوج ما يكونون إلى فترات بعاد ينأون فيها عن محيطهم المألوف ليتفاعلوا وسواه. وعندما يُقفل أحدهم عائداً إلى محيطه يرحّبون به ترحيباً حاراً وكأنني بهم يردّون : زُرْ غيًّا تَرَدّدْ حُبًّا.

يغادر رجل منزله في الصباح الباكر للتنزّه تحت أفنان الشجر، وما يلبث أن يعود وكأنه إنسان آخر. فالارتحال لنيل قسطٍ من الراحة يجدّده ويعيد إليه نضارته فلا يخشوشن ولا يتصلّب. كلُّ حركة ممكنة على رقعة الشطرنج البشريّة. يتمتّع الأطفال مثلاً بقدرة تكيفٍ مدهشة مع ما يحيط بهم. ونحن نتوق إلى عهد الطفولة الذي لا يبارح بالنا، وإلى استعادة الأجواء العفويّة واكتناه الغاز الاشياء المتبدّلة.

القلب يتقلب والحب يترنح. ولست أعلم مدى قدرة الإنسان على إدامة شحنة الحب مضطربة في صدق وإخلاص.

إنَّ قدوم مولود جديد مدعاة للاغتباط لدى الأبوين. هذا الحدث الجلل يرسخ أواصر الحب بينهما. ولكن، ما إن تهدأ الأمور ويخفَّ وهجها حتى نرى أن سيرورة الزواج قد تغيّرت للأسوأ أو للأفضل. ومن عوامل الكآبة على دروب الحياة علمنا أن لا شيء إيجابياً سيتكرّر في أرض الواقع.

نتوق ذات يوم إلى الثبات والسكينة، ولكنَّ استقامة أوضاعنا تتبيّن صعبة المنال. وإنَّ يسراً بعد عسر لا يضع حدّاً لاضطرابات المأى ولكنه يغيّرهم تغييراً جذرياً.

جدّد صياغة نفسك تجدّد كلّ شيء حولك. أطلق سراح مَنْ تحبّ ولا تلتصق به ليل نهار، لأن الواقع لا محالة يكون قد عفا عليه الزمان وباد معظم أهله أو انقضوا. أمّا الساعون لئلاً يطرأ أي تغيير على حياتهم، فموقفهم مجلّبة ليأسٍ مثيرٍ للشفقة.

تغيير الذات أساس كلّ تغيير. الأشياء لا تتغيّر إلّا بقدر ما نتغيّر نحن. الله "لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم". جوهر وجود الإنسان هو انتقاله من حال إلى حال. إنكار تغيير الذات تواطؤ مع نفسنا النباتيّة-الحيوانيّة على نفسنا العاقلة.

التغيير ظاهرة طبيعيّة، فعليكم أيها "الكبار" المتخاذلون استباق الاحداث قبل حدوثها والتخطيط لها. المستقبل رهـن مُبدعيكم.

إسألوهم: ماذا سيحصل لو...؟" والأولى بكم أن تسألوهم: "أنى لنا أن نتعافى ونتصرّف تحقيّقاً لجوهر وجودنا؟" ... ما أكثر ما ضاقت أوطاننا بخيرة أبنائها فشرّدتهم في غياهب المهاجر وأشجانها بسبب حفنة من الدمى التي لا تتحرّك!

حتمية التغير أيضاً وأيضاً!

كلُّ شيء يعبرُ، كلُّ شيء يتغيّر. الواقع متزَمّن على الدوام. ولحظة أظنُّ أنني تلقّيت نمط الحياة، تكون الحياة قد تبدّلت. نتغيّر شيئاً أم أبينا. والثابت الوحيد الذي لا يتغيّر هو أن لا شيء ثابتاً أو لا يتغيّر.

حيث نكون هو مشهدٌ من مسرحيّة يُفضي بنا إلى مكانٍ آخر، ومهما فعلنا وأجَدنا فعله هو تحضيرٌ للقيام بفعلٍ آخرٍ مختلف.

الأشياء تتبدّل شطراً ما هو أسوأ من تلقاء نفسها ما لم تتبدّل شطراً ما هو أفضل عن قصد وسابق تصميم وخبرة.

الإنسان روح حرة ومُبدعة لما هو خيرٌ أو شرٌّ. هذا ما يؤدّي إلى العالم المريب الذي نعيش فيه، وهو عالمٌ مُطرد الإبداعية ولا يني يتغيّر أو يتقلّب بلا أمان. ليت الحياة كظلّ شجرة، ولكنّها ظلٌّ طائرٌ في حالة طيران.

وهكذا، ينبغي ألاّ نبدد وقتنا في الأسف العبيّ على ماضٍ مضى أو في التبرّم من تغيّرات تتسبّب لنا بانزعاجات، لأنّ التغيّر جوهرُ الحياة، والدليلُ الأوحد الذي يثبت وجودها.

أنّ نوجد يعني أنّ نتغيّر، وأنّ نتغيّر يعني أنّ ننضج وأنّ ننضج مؤداه المضيّ في خلق أنفسنا إلى ما لا نهاية.

علينا، لا محالة، أنّ نتغيّر لنبقى في قيد الحياة. وكلّ ما ليس أبدياً هو في حيّز الزمان.

نرتاد المقاهي للوقوف على نبض الحياة في الوطن وتحت كلّ سماء. نحاول ما استطعنا أنّ نردّ بعض الشيء هجمات الجمود والتخلّف ونعزّز الروح النقدية لدى أبناء جلدتنا لنلّا يطلّوا مُتقهرين أو يستمرّوا في الغرق في أمواج بعض الحضارات أو الممارسات الملتوية. الهدف هو أن نجعل ناسنا ينهضون من سباتهم وينفضون عن مناكبهم غبارَ الذلّ والخمول.

إرتياد المقاهي عادة مستحبّة، والمقاهي في أدنى الحالات تنبّه بقهوتها الأذهان وتستنهض الهمم على الرّغم من الدُّخان الذي قد يجلب الأمراض، وقد شهدت بعض مقاهينا الصامدة، كما في

الحي اللاتيني ببإريس، ولادة تيارات فكرية وأدبية وحتى سياسية، تقوم فعلاً بدورها الفاعل والمؤثر في أعماق المواطن المأزوم على العموم.
مَن للتغيير المنهجي والجذري يا ترى؟

صعوبة التغيير!

كلُّ تغيير، وإنْ في سبيل الأفضل، محفوفٌ بأوجه القصور وعدم الارتياح. فالعادات القديمة مستحكمة وشديدة التغير كما الإنسان. وكلُّ تعديل جديد هو أزمة في مستوى احترام الذات. كلُّ حقيقة مستجدّة تبدأ ببدعة مروّعة. الولادة على جانب من العنف أكانت ولادة ابن لنا أم ولادة فكرة . كلُّ حقيقة تقضي إلى فضيحة بجلال. حتى في الأمور الطفيفة، لا تمرُّ تجربة جديد ما بلا إثارة نذير. لا يحدث التغيير بلا إزعاج حتى عندما تنتقل من الأسوأ إلى الأفضل. وكلُّ تغيير، حتى الذي نتوق إليه ونصبو، ينطوي على نصيب من الكآبة لأنَّ ما ندعه وراءنا هو جزء من كياننا؛ ينبغي لنا أن نستमित في حياة ما، قبل أن نلج

إلى حياة أخرى. أن نحقق عمل خير، هو روح وحياة وينبوع عطاء. يلتهب القلب بالحب والرحمة في الأيّام الحالكة، فيحصل توارٍ في قلب الإنسان وصفاء وحدة لا اعتزال. أهل الخير في سرهم فوق الأزمنة الرديئة. إنهم واحة عزاء في صيام طويل.

أن يغلبوا أنفسهم فيما العابثون بمقدراتهم كثر، ذلك هو التحدي الإنساني الكبير. ولكن الحب من طرف واحد وهن في الواقعية ولربما حماقة. وعدوُّنا يبقى أولئك الذين رفضوا ولمّا يزالوا فكرة الكرامة الإنسانية والتعاضد، يعزّز موقفهم هذا، أننا عملياً جماعة خطابة وحماسة لم تدخل في طور علم الإنسان المبدع على صورة الله . متى يحصل التغيير الجذري المنشود والتوثب الثقافي أولاً؟ هل يبلغ شأننا الثقافي يوماً مرتبة يخاطب فيها العقل اليهودي المهيمن على العالم ولو بدرجات، فيحرّره من تعصُّبه وانقباضه وإغائيته؟

أين المسؤول التربوي؟

تلامذتنا في حاجة ماسة إلى ملكة إضفاء معنى على معلومات باتوا يختزنون معظمها والوقوف على الفرق بين إلهام وغير إلهام، والجمع بينها في إطار صورة عن العالم جامعة شاملة مانعة. ينبغي توجيههم إلى كَيْفِيَّة التفكير من تلقاء أنفسهم... نعلمهم الروح النقدية والتواصل والمؤازرة والإبداعية. نرشدهم إلى سُبُل تتيج التعامل مع حتمية التغيير المتسارع مع الحفاظ على توازن ذهني بإزاء أوضاع غير مألوفة: يترتب ابتداع فكر جديدة وآليات مستحدثة وإعادة نظر دائمة في ذواتنا.

الحياة تقتضي مزيداً من الطواعية. والمسؤول التربوي يتجلى صانع أفكار وناشرها، ينقل النظريات إلى ثقافة عملية. إنه المعني الأول بالشأن الاجتماعي وبالقيم المحورية للمجتمع. هو وارث العلماء والمفكرين والفلاسفة والمصلحين الذين حافظوا على الحقيقة وشاهقات القيم.

مدخل المسؤول التربوي إلى عمله الجدّي إدراج مادتي التربية المدنية والتربية الأخلاقية في المناهج المدرسية.

وما عرفنا وطنًا صنو وطننا، يلد معلّموه أحيانًا ملكات نظريّة ثم لا يحضنها "مسؤولوه" الغائبون في هذه الأيّام، وتتفجّر فيه أرضه وسماؤه بينابيع من الإلهام ثم ينكمش عنها لتصبّ في غير بيئته، وتجري في عروقه وتتملّ طاقة في غير وجوده. عليه أن يكون البدء في التحرك ليبلغ الظفر المرتقب، لا أن يكون ما يشبه الختام لبدء يشرع به الخارج أحيانًا، ويبقى هو في القعدة، عاجزًا عن الاستلهاً حين الإلهام يناديه، وبعيدًا عن إطلالة الرّكب حين الرّكب يغذّ في السير وهو يلهث في المؤخرة!

قديمًا شاء بعض المسؤولين التربويّين تقليد بلاد الناس، فتبيّنوا كضفدعة الكاتب الفرنسي لافونتين التي شاعت أن تبلغ ضخامة الثور فانفجرت. ويؤلمنا اليوم بل يشقينا أن نرى الفكر كيف يندحر في مجتمعنا وكيف يخذّ له "المسؤولون" الأخاديد في إصرار مجرم وقصد هو الإثم. فالأمّ غيابهم في الحقل التربوي؟

أين الشعب؟

كيفما تكونوا يُؤَلَّ عليكم! فما بالكم تلومون "الدولة" على الدوام وأنتم جميعاً من مكوّناتها؟ نلوم النوّاب والوزراء والقادة والزعماء... ونغفل عن ذكر أنفسنا، نحن الشعب، الذين ما كان شيء ممّا كان ليكون، لولا لم نكن غافلين، فلم نفعل شيئاً لتصحيح الأوضاع، ورضينا أن نكون كريشة في مهبّ الريح، تتخاطفنا الأيدي، وتلعب بنا النزوات كما تشاء...

ليسأل كلّ منا: هل قمت بواجبي؟ هل استطعت أن أدفع الأذى عن وطني ولو بالحد الأدنى؟ وما سبب نقاعسي؟ هل كنت مريضاً، فلم أشارك في النّود عن وطني؟ هل ضحّيت بصدقات أو منافع في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل؟

هل لديّ إمكانيات أخفيتُها، أو مال ضننت به، أو شيء من الفهم والإدراك لم استعمله من أجل تقويم ما اعوجّ من شؤون بلادي؟ هل رأيت منكراً على مسرح الوطن، بطله حاكمٌ ولو محكوماً أو غنيٌّ مقتدر أو فقير معسر، ولم أردع مرتكبه عن عمله القبيح؟ يغادرون وطنهم يوم يمسي في أمس الحاجة إليهم. يتركونه وفي

استطاعتهم، لو شاءوا، أن يفتدوه بمالهم أو علمهم إن لم يكن بأرواحهم. ويدعون عبء الدفاع عنه على عاتق الفقراء والشرفاء، في حين أن هؤلاء الذين درأوا عنه الشر يظنون في مهاوي البؤس والجهل والمرض. هكذا يعيد تاريخ بلادهم البائس نفسه بلا جدوى.

إذا شئنا أن نسير بالجسم الاجتماعي إلى شيء من كمال الحياة، تحتّم علينا أن نربّي أجيالنا على صون التقاليد الوطنية والأخلاقيّة وأهمها التقاليد العليّة السويّة، لأنّ الحياة الصادرة عنها ميمّمة شطرّ الإلفة والازدهار.

السّعي وراء الوظائف!

درج حملة الشهادات عندنا على البحث عن وظيفة ما مُسترخِصين لها كل شيء لنيلها، مُنتظرين أسابيع بل سنوات. يُقبلون عليها إقبالاً جارفاً، كأنّما لم يعد هناك سواها، وكأنّما لا يتعلّم الإنسان إلّا طمعاً بها. ولا غرو في أنّ الحكومات النزيهة لا يسعها أن تنصب كرسيّاً لكلّ من منحته شهادتها. لو أصبح

كلُّ المتعلِّمين موظَّفين فأين الأمَّة التي يكونون عليها موظَّفين؟ حصلت كارثة المودعين في المصارف فتبخَّرت مدَّخرات الموظَّفين أولاً على يد... كبار الموظَّفين! فأين غدا الزرَّاع والصَّنَّاع الذين سعوا إلى الوظيفة مهما بلغت صغارتها وضالَّة راتبها؟ وعلامَ بعض أصحاب الأراضي والأُملاك لا يعمدون إلى توسيع نطاق منتوجاتهم وصناعاتهم ويرفعون من شأنها مالياً واقتصادياً وسياسياً؟ لقد تقلَّص النتاج المحلي واعتاد النَّاس الراحة لا يتحملون حرَّ الصيف وقرَّ الشتاء.

أُلغوا الألقاب والرشاوى تلغوا التهالك على الوظائف! والواقع أنه لا ينحطُّ إنسانٌ عن الآخر في حالة من الحالات، انحطاطَ الحيوان عن الإنسان، لأنَّ الإنسان، ولو كان قليل الفطنة أو "وضيع" المهنة، يبقى إنساناً له غايته السَّامية ويبقى نفساً رُوحيةً أبديةً معدَّةً لسعادةٍ أو كرامةٍ دائمة...

جرفنا تيارٌ غربيٌّ عزَّزَ فينا حبَّ الظهور والتبجُّح، فنَبَذنا الأعمال التي تحتاج إلى أناس يشمرون عن سواعد مفتولة عزماً وقوَّة وإن أتت هذه الأعمال بالربح الأوفر. وما زال معظمنا يسعى لتمضية أكبر وقت في تنميق الذات: فتيات يسترجلن وشباب يتخنثون وكهول يتصابون. وما زلنا لضعف نفوسنا نُكبر ذاك الذي يشغل هذه الوظيفة أو ذاك المنصب من غير أنْ نقيم وزناً لعامل يكدُّ النهار وشطراً من الليل أو لفلاح يجدُّ طوال

نهاره تحت أشعة الشمس. نتهالك على الوظائف الباهرة والألقاب الفارغة والناس في بلاد الناس ينبغون ويخترعون في جوٍّ ليس كجوِّنا صفاءً وإلهاماً، ويزرعون ويحصدون في أراضٍ ليست كأرضنا خصباً وطيباً. يؤسسون الشركات ويستخرجون حتى في بلادنا كنوزها الدفينة ونحن ساعون وراء المناصب والمراكز، يزداد عشقنا وتهافتنا عليها، ما يجعل الأمة اتكاليةً ضعيفةً مُستعبدةً اقتصادياً وسياسياً. ما زال معظم كبار موظفينا كالحجارة في جمادها بل الحجارة أفضل منهم لأنها تُرصفُ أبنيةً تقينا عاديّات الزمن، وهم عالة على الزمن.

المدرسة... المدرسة!

أين مدارسنا تستقبل الطلاب بملء العطف والحنان، كما تستقبل الأمُّ الرؤوم أبناءها، وتمدُّ لهم يدَ العون ليتجهوا إلى الأمام ويغرفوا من ينابيع التربية والثقافة ما يجعلهم أعضاء نافعة في جسم مجتمعنا وفي المجتمع عموماً؟
أين الوزارات الغائبة تضيء لأبناء أجيالنا الصاعدة فعلاً طريق الحياة، ليستطيعوا أن يشاركوا في خدمة أمتنا التي تكاد تخسر هويَّتها ورسالتها؟

بالعلم والأدب يمكن الوزارات الرشيدة أن تؤدي واجباتها على أفضل وجه وأنبل قصد، بعيداً عن أشتات من المعلومات التي تُملَى على طلابنا البائسين أساساً.

أُنّي لطلابنا أن يفيدوا من مدارس طغت عليها الكآبة والعزلة؟ أُنّي لهم أن ينصتوا إلى رنين الجرس يدعوهم إلى استقصاء خوافي المعرفة في حين تحجب تلك المدارس عن عيونهم تلك الابتسامات التي ترتسم أساساً على شفاه المكلفات والمكفّين تدريسهـم وزرع بذور الثقافة في أذهانهم الطرية؟

طلابنا لا يتمنّون إلّا أن تنطوي أيّام التدريس المعدودة في سرعة ليعودوا فيرتمون في غياهب الضجر والرتابة ويحاولون تعويض عطش قلوبهم من معين حنانٍ فقدوه حتى في منازلهم، للانكباب على توافه الأمور والمادية الجوفاء الرعناء.

يعيش شبابنا في نفق بعيد الغور وأمامهم مدرء ومعلّمون يبحثون عن الحدّ الأدنى للأجور... بعيداً عن الانشغال بتنشئتهم كمواطنين صالحين بل كبشر أفاضل.

مَن تراه دخل في رَوْعِهِ أن وزارات التربية والثقافة والشباب... هي غير سيادية؟ أُنّي لأمتنا أن تكون حاضرة فاعلة وهذه الوزارات واجفة مرتجفة لا قرار لها ولا رأي؟

هل يدرك بعض النافذين أنّ سلطة العقل في ما يأمُرنا به تفوق سلطة السلطان ولو بعد حين؟

تجاهلُ العارف!

السكوت كما الكلام شأنه أن يحجب الحقيقة! إلا أن الجهل اليوم أمسى بلا مبرر. وعندي أننا إذا شهدنا القسوة وإمكان وضع حد لها، ولم نحرك ساكنًا، فإننا نشارك في القسوة وإزهاق كل الأحلام. أمّا الحقيقة الحقيقيّة، لدى الشرفاء العقلاء، فهي إلى جانب المتناقشين ولو بدرجات. وأمام خطب ما قد نلوذ بالصمت المجدي - وليس بالسكوت المريب - ونلجأ إلى مسعى ما لحل المشكلة القائمة.

في التسلسل التصاعدي الإيجابي للعلم، هناك تباعًا الجهل فالادعاء، فالتجاهل والتجهيل، فالمعرفة التي تكشف العلم للعقول المدركة، فالثقافة التي "توظف" المعرفة، فالعبقريّة أو النبوغ فالنبوءة!

لو كان عرف بعض النافذين عندنا عمق التفكير أو سمو الصنيع، لكنّا عرفنا! ولكنهم، على تجاهلهم وتجهيلهم، وجهلهم لضعفهم ومصلحتهم الفعلية، نراهم يتطاوسون ويتصرفون أمام أتباعهم وشعبهم الغفور بصيغة التمني في حين أن المنايا تزحف إلى الجميع من كل حذب وصوب. يتحدّثون مع "نظرائهم" من

بلاد النَّاس مستكبرين مستصغرين في حين أنهم ما زالوا
يُدمِّرون بلادهم ويتقدَّمون الجنازات بألقاب متوارثة وانتماءات
بلا إيمان! ينادون شعبهم بالفضيلة ويتَّهمون "الآخر" في حين
أنَّهم في طليعة الفاسقين. هذا، فيما يتحوَّل أغنياء الوطن فقراء
وفقراؤهم عبيداً. يحاولون عبر جهلهم وما إليه أن يكسروا
مقولة الفيلسوف هيغل التي تقول بجدليَّة العبد والسيد.
يمارسون تهافتهم البغيض المميت على الرغم من حلول لعنات
الأطفال والثكالى والمعوزين عليهم ليل نهار.

إنَّ أدنى المهن وأحطِّ الصناعات، لأشرف من التجارة بالنَّاس
ومالهم وكلُّ ما لهم بعيداً عن مواطن الرأفة والإنسانيَّة، وإنَّ
أصحابها الغليظي الكبد وأسوأ النَّاس لن تفرِّق بينهم عين العدالة
الإلهيَّة، يومَ الثواب والعقاب. إنَّني أشفقُ عليهم!

حقيقة الحروب!

توخَّى البشر أن يعرفوا هل الحرب عادلة، فسألوا الله أو الكتب
المقدَّسة، واستفتوا قادتهم، وقلَّما اعتبروا رأي العسكر أو
المواطن العادي. وركَّز المؤرِّخون القدامى على أنشطة بعض

القادة فجعلوا النصر والمجد - ولو وهميين - يحجبان الظلم والمآسي.

كُلٌّ ينظر إلى الحروب من وجهة نظره هو. والحروب ليست ما نراه على الشاشات أو الرسوم أو نسمعه في الأغاني.

الحرب جحيم تحت كلِّ سماء. وليست تقنيَّاتها والإلهيَّات أساسيةً في سرد تاريخها. علينا أن نبحث عنها بالأحرى في عيون الجنود وإحباط الأهالي وتمزُّق الأجسام.

الحرب جهنم على الأرض ولكنها أحياناً دفاع مشروع عن النفس. فهل من مُسوِّغ لحروبنا المتضاربة الأبعاد والأهداف؟

لبنان شئناه رسالة ومختبر حضارات، وإذا بِمِحْنَةٍ تقسو وتدخلنا في اللامعقول وبتنا نأمل أن يصبح الموت المجال الوحيد للقائنا. شعبنا يريد الحياة في بساطتها، وتأتي السياسات في ما بعد. يريد عيشاً طيباً كريماً. يأمل تحقيق الحرية والسلام مدخلاً إلى وجود حقيقي على كل المستويات.

إن حرباً باسم الدين لا يرضاها الدين. والحرب للمصلحة الشخصية أو الفتوية تهيج الردَّ عليها إذا تبدلت الأحوال. والحرب في النفوس يتعذَّر نسيانها. فلنَهْذَبْ أنفسنا أولاً لأنَّ جرثومة الحروب هي العقول المدبِّرة وإنَّما المأزومة في عمقها. الشعوب التي لم تتروَّض على العقل المروَّحَن تعيش بقفزات عشوائية. السلوك مِرَاس داخلي. نحن نحيا خارج أنفسنا وقُلَمَّا

ندرك أنَّ الكلمات لها مدلولها وأنَّ رؤية الحقيقة تتجسّد فيها أو تكون أهلَ لغوٍ. نتلاعب أحياناً بالكلام وليس بالكلمات. اللبناني العُبان كلام، حكواتي يستلذُّ حنجرته. إنّه ظاهرة صوتيّة. الكلام قناع نضعه خشية أن يصبح الوجه إلى الوجه وأن يُفضَح وضعنا النفسي. ينبغي أن ننتق من عبوديّة الأنا والمادة الرعناء والمظاهر الجوفاء . وإنَّ زحمة السير الموصولة أسطع دليل على ذلك. مَنْ هو ذاك المسؤول-البطل الذي يعمل لثورة داخلية حقة هي أساس كل الأسس؟ أين وزراء الثقافة والتربية والإعلام يا ترى؟ أين وزير "الشباب"؟...

ماضي الأيام الآتية!

الوقت من ذهب إن لم تُدرّكه ذهب! نعدُّ أموالنا، ندقّق في حساباتنا ولا نقيس أوقانتنا ما لم نكن نعمل بالساعة. والزمان، لغة، هو الوقت طويلاً كان أم قصيراً! الوقت عطية عامّة استعمالها شخصي والحاضر فيه غائب ماضٍ وعابر. وصيغة المضارع أسطع دليل على ذلك، يتفاعل

ربّما وإهمالنا دور الوقت. ولكن، ألا يعيش الحاضر وجدانيًا عبر الأسف أو الذاكرة أو وخز الضمير؟

في اللغات القديمة وحتى الحديثة فرق بين الوقت الكمّي الذي نقيسه والفرصة السانحة أو الوجوديّة التي نركّزُ فيها على الكيف. خلال الوباء الزاحف بات الوقت أكثر فأكثر مسألة وجدانيّة وجوديّة. يتسارع عندما نلهو فرحين، ويتباطأ عندما نترقّب الأحداث أو ننتظر الأحباء. يتناقل عندما تجابهنا عراقيل ويترنّح عندما تزدحم أعمالنا.

ومنّ ذا الذي يقابل بين زمان الأرض وزمان السماء؟ حسبنا أن نسترجع قيمة الوقت! ألا يكفي أن نزعّم أن التاريخ يعيد نفسه؟ وهل تراه يعيد نفسه؟ هل تراه يعيد نفسه لدى غير المجتمعات المتخلّفة؟

لدينا ١٤٨ ساعة من الوقت في الأسبوع الواحد. نحتاج إلى ساعات من النوم وساعات للطعام وساعات للعمل، وساعات للانكباب على الخلوي والإجابة عن البريد الإلكتروني ومشاهدة التلفاز... فهل هناك، شرقًا وغربًا، وقت للأسرة والأصدقاء وفحص الضمير الذي نرجوه ليس مستترًا أو منفصلًا وإنّما متّصلًا حيًّا؟

الفرص السانحة - وهي المعنى الثاني للوقت - لا تزال متاحة أمام مجتمعتنا، فهل نظلّ نبحث عنها حصرًا للكسب السهل والسريع؟

لبنان أشبه ما يكون بالفردوس المفقود، وبات أهله يسلكون طرقهم غير المضاءة في متاهات مصير يقرّره الأجنبي! نسير في نفق طويل ونرتطم بجدرانهِ. القلوب مدمّرة، فمن ينقذ الوطن الجريح لنألاً يخرج نهائياً، في مكان النَّاس، من زمان النَّاس، فترانا، ما إنْ نولّد حتى نمسي قريبيين من الموت؟ إياكم والتشاؤم، ولكن، تذكروا دوماً قصة زاهد قيل له: كيف أصبحت؟ فأجاب: كيف يصبح رجلٌ إذا أصبح لا يدري، أيَمسي؟ وإذا أمسى لا يدري، أيصبح؟

أين نماذجنا؟

لئن لم تتمكّن من أن تكون نموذجاً يُحتذى، فعليك أقلّه أن تكون علامة تحذيريّة لسواك! فالنموذج الحي هو بمثابة موعظة أو خطبة لا مثيل لها. الأطفال مثلاً يحتاجون إلى نماذج أكثر منهم إلى نقاد. وإنْ نحن قتلنا التوقيير والاحترام فيهم قتلنا فكرة البطل في الإنسان. إننا نخدع أنفسنا عندما نظنّ أنّ الوهن يحتاج إلى الدعم. فالقوّة تحتاج إليه أكثر بكثير. المثل الأعلى له أنصار

أكثر من العقل. وهو يحرك العالم أكثر من أي عقيدة. إنه مدرسة البشريّة جمعاء.

نخرج في طلب العلم فنرى شعوباً تزاوّل أعمالها أفضل منّا أو تُعمل الفكر في شؤون الحياة وشجونها على غير ما نفعل فنستلهم جماعات ونتجاهل أخرى. وقد نخبر ذلك في إصدار أحكامنا عبر إحساس مرهف من هنا وتحديات وجوديّة من هناك وتناقض مجدٍ من هنالك واحتكاك بأبطال قضوا ولم يزلوا أحياء في نفوس محبّيهم وقادري فضلهم. نشعر تدريجاً أنّنا المسؤولون الأوائل عن مسيرة حياتنا واستشرافنا للمابعد. الأمّ تحيا أولاً من أجل وليدها. وهي تتأثر في ذلك، لا محالة، بما تحسبه الأفضل في محيطها الضيق أو البعيد. وإنّك لتتبيّن أنّ دولاً عظيمة قد تفقد مكانتها إنّ هي افتقرت إلى أبطال وأصحاب رؤى أفذاذ.

نرزع تحت أعباء الواقع الدولي ونقاسي من جور الحاكمين وتعسفهم. لغتنا دبّ إليها الضعف وانتاب الوهن والتراخي معظم "ممثلي" الشعب. فمتى نتفتح على آفاق الوعي الوطني الموحد أذهاننا وتأخذ أفكارنا تستضيء بنور الحقّ والحرية المسؤولة وحبّ الكرامة الفطريّة والإيمان؟ متى تروح هممنا تتحفز معاً للوثوب الممنهج الهادف والانقضاض على أولئك الذين قيّدونا بسلاسل الظلم، وعملوا لخنق لساننا الحبيب وتفريق عنصرنا

الواحد إلى شيع وأحزاب؟ أين القادة الخلاء الأوفياء البسلاء
يجمعون الشمل ويوحدون الصفوف ويسيروا في الطليعة
ليزكوا نار الحمية والحماسة في قلوب متعطشة إلى الانعتاق من
ربقة الاستبداد المرير، وليقودوا جحافل الأباة الناقمين، إلى
حيث يحطمون أصنام الغطرسة البغيضة والعظمة الجوفاء.
متى نستعيد نماذج قادتنا العرب في مرحلة ما قبل الإسلام
وصدر الإسلام والعصر الأموي والعصر العباسي والأزمنة
الأخيرة؟ إنه لجميل حقاً أن نفتفي أثر أحدهم ونحذو حذوه،
فيكون في ذلك خير حافز لنا على تحقيق أغلى الأماني والتبشير
بمبادئه الصحيحة الصادقة.

لِمَ الهروب من وطن الأرز؟

أهدى الصديق الرئيس شارل حلو بلدة كولومب-ليه-دو-زغليز
حيث ووري سميّه الرئيس شارل دُه غول في الثرى، بكل
بساطة، عددًا كبيراً من أرز لبنان *Cedrus libani* يفوق عدد
الأرز في "عقر داره"! لم أكن وقتئذٍ مستشار الرئيس الأدمي
وإلا لكنتُ حاولتُ أن أخفف من ثقل الهدية...

كان الرئيس الحلو الشمائل متحدثاً لبِقاً بلغة *Molière* وحتى بلغة الضّاد. وأراه شخصياً قد خَفَّفَ في عهده وما إليه من الخطابيَّة التي سقط في مناهاتها "كبارنا" قبل "صغارنا" أقلّه في ما مضى من الأزمنة. أما فقدان تقديمتهم للوطن والمواطنين فحدّث به ولا حرج. فبتنا في غمر خطابات جوفاء رعاء تواكبها حدّة نبرة من هنا وجهامة قسّمات من هناك وتقطيب الجباه من هنالك. بتنا نترحم على أيّام الرئيس الآدمي وقلة سواه، فالنافذون و"المسؤولون" بلا كبير مسؤوليّة واستشراف انبروا يزرعون في عقول الناس مقولة أن الحياة تنبعث ممّا قُدر لهم من هنا أو من هناك، وأنّه مكتوب عليهم أن يضحّوا بأنّ يستشهدوا في سبيل هذه القضية أو تلك من القضايا المستوردة في أكثر الأحيان. لم يشعر هؤلاء الجهابذة أنّ دعواتهم وكلامهم المكرّر غير المعجّل، باتت كلّها بلا حضن دافئ يحتضنها.

استكبار واستصغار وتجبر وفقدان زمام المبادرة، في ظلّ مركزيّة سلطة ممسوكة من الخارج وغير متماسكة، واختلال سافر في المعايير وتذرّع يائس باعتبارات وأفئدة طائفية خليقة بمواسم الكرنفال. أمّا في بلاد الناس، فثمّة لامركزيّة كما في بلاد العمّ سام تجعل المنافسة الإنمائيّة والاجتماعيّة أقوى. وهذا ما نلمسه بنسبة أدنى في فرنسا مثلاً. ويسألون لم يلجأ أناس إلى بلاد الناس؟

لِمَ رفضتها؟

من جملة ما زرعتُه منذ أن زرعتني الله في التربية والتعليم الجامعي والكتابة منذ الثامنة عشرة من عمري، أنَّ ثَمَّةَ علَّةٍ موجبةٍ وعلَّةٍ مانعةٍ في بلادي. في الحقل السياسي الذي لا يكاد يجتذب حتى الساعة سوى النفوس الضعيفة، العلَّةُ الموجبةُ هي الطبقة "الحاكمة" التي تسبَّبتُ بهلاكنا، والعلَّةُ المانعةُ هي القوى الخارجيةُ التي تحول، ولو بدرجات، دون حلِّ مشاكلنا المتداخلة من غير أن تلغينا من الخريطة العامة.

نقمتُ باكراً على هذا الظُّلم الفادح وتمسَّكتُ بحقوقنا المشروعة، فالحق يُنْتزَعُ انتزاعاً ولو كان في حجاب الشمس أو في نهر المجرَّة.

في أحد كتبي حول فلسفات الثورة مثلما في مقالاتي شبه اليومية منذ عام ١٩٦٨، أسأل التاريخ عن الثورات العالمية الحقَّة على كلِّ باغٍ وظالم. فالثوَّار الحقيقيُّون في الروع صواعق تنقضُّ على الطُّغاة، فتدكُّ عروشهم ولو وهميَّةً، وتقوِّض دعائم سيطرتهم ولو تعكيزيَّةً. بعد أن أهملوا اسمي في حكومتين متتاليتين، وضعتُ خريطة طريق لهذا الوزير أو ذاك. إحدى الوزارات للإعلام - منال عبد الصمد - وهي لا تفتقر إلى

ملكة الكلام وأضفت بأنوثتها عطراً ورونقاً، دعوتها عبثاً إلى
مؤازرتي لننبت قيادات نزيهة ونقويّ شكيمة وننضج حنكتها
بما أوتينا من توجيهات المفكرين والمنتسكين وفي إطار من
المنهجية المتناسكة.

وتسألونني لم رفضت وزر وزارتين متتاليتين؟

سئمت التعليق على الأخبار!

الإعلام الحامل شعار الصدق والموضوعية، ينبغي له أن يتحدى
رياح الأزمات الخائفة التي تعصف به، ويكون في خدمة
الوطنية بعيداً عن عوامل الترهيب والترغيب، وفي الصف
البطولي الذي يقف فيه العباقره الشرفاء، راجمو شياطين الفساد
والاستعمار الجديد.

ثمة قواعد استشففتها من "كبار" المعلقين على الأخبار في العالم،
تتناول الأصول الواجب اتباعها في كتابة التعليق على الأخبار.
بين هذه القواعد: الاطلاع التام والأمانة في العرض والنزاهة
والإقرار بالخطأ والشجاعة.

للإعلام في بلاد النَّاس دور الجسر بين السلطة والمواطن. وأمراض الأنا الدهريَّة طعنة في جسم أمتنا. في نكران الذات نلقى الوطنيَّة بل الإنسانيَّة البكر. ومَن خاف ربه فعلاً وكذلك ضميره الحي، لم يكفر بالغيريَّة ولم ينتكّر لمن يختلف عنه أو يؤمن بما لا يؤمن به. والإعلام الذي يمثّل السلطة الأولى في هذه الأيام حتى في مجتمعنا، يترتّب عليه أن ينعق من مكامن ضلاله وتضليله ومن الخمول والانحطاط، ولا يهمل اللغة الأم. فهل تستيقظ في بلادنا نخبة من حملة الأقلام فتدافع عن كيان الفصحى وتخلق في هذه الربوع التي عبث بها العابثون، روحاً أدبيَّةً وثَّابة، تمتدُّ إلى قمم لبنان وسفوحه ووديانه، فتنشأ فيها جمهرة حرّة يكون لها الفضل الأوّل في رقيّ الوطن وإنعاش شعبه الذي يكاد يفقد صبره؟

تكاد تتغلّب الصورة على الكلمة أو الصوت الجميل، والتفاهة على الثقافة... فالإمّ وعلام هذا الهراء الذي يساهم في تفهقر المجتمع أيّما مساهمة؟

ديمقراطية، قال!

هناك رئيسٌ استثنائيٌّ وديعٌ كالحمل متواضعٌ كالبنفسجة طاهرٌ الضمير كزنابق الحقل حتى قبل تسنُّمهِ الرئاسة الأولى يومَ اضطلع بمهام حاكم مصرفنا المأزوم... يكره الظهور ويمقت الأنبهة ويعشق البساطة، ويحمل على الغرور والكبرياء حملات هادئة هادية ويسكب بلسم اللطف والعطف والسلوان على جراح الكادحين وحاملي التعب والبؤس والحرمان.

لَمْ تدهورت أوضاع البلاد رغم أمثال الياس سركيس الذي تفوَّق، في نظري، حتى على الرئيس فؤاد شهاب والرئيس الشهابي شارل حلو؟

في دنيا السياسة اللبنانية "ديمقراطية توافقية"، يظنُّ بعضهم أنها تساعد مجتمعات متنافرة كمجتمعنا على تثبيت نظام فيه مشاركة سلطة بين الأحزاب والتحالفات والجماعات الطائفية. تستلزم الديمقراطية التوافقية إجماعاً، ولكن، ثمة "ديمقراطية" أخرى من هذا القبيل يدعونها "تشاركية" تسمح بحق النقض، وهذا ما يسمُّونه تفصيلاً، الثلث المعطل، أو تخفيفاً، الثلث الضامن!

لئن بدت الديمقراطية التشاركية تُرضي فئة من اللبنانيين، بمعنى أنَّها تتيح لكل فريق سياسي أن يعارض تطبيق قانون أو قرار اتخذ بالتصويت أو بوساطة هيئة مختصة، وتعبير آخر عبر الأكثرية النيابية العددية، فمن شأنها أن تعطلَّ عمل هذه الأكثرية وتوشك أن تعيق عددًا من القرارات والمبادرات. بتعبير آخر، إذا كان من شأن كل حزب سياسي أن يستخدم حق النقض ويلغي نصًا لا يناسب تطلعاته، فإنَّ الجمود هو سيّد الموقف وهو يحول دون حسن أداء مؤسسات الدولة. هل النسبية هي الحل؟

قد يبدو هذا الحلُّ إيجابيًا. ولكن، أليس من شأنه أن يمهد لطلاق ما سياسيٍّ ولو أنَّه مرحليٌّ، يُجنَّب وقوع البلاد في حضن الدكتاتورية؟

يتكلم بعضهم على إلغاء الطائفية السياسية، والأولى بهم، في نظري، أن يتحدثوا بالأحرى بإلغاء للطائفية الوظيفية بالمطلق، والأفضل أيضًا، أن يتحدثوا بالعلمنة أو بإقامة مجتمع مدني فعلاً. فأين هو التمهيد لهذه الثورة الوطنية الحقيقية؟ بفضلها ينتظم المواطن انتظامًا مباشرًا في معزل عن المرور الذهني والنفسي بالجماعات الدينية أو الطائفية أو حتى العشائرية. الثورة الفرنسية قالت بالعلمنة وهذه مقولة تعني أن دينك لك فردًا، ولكنه لا يؤخذ بعين الاعتبار على الصعيد المجتمعي.

من شريعة الغاب إلى شرعة "المدينة"!

المنقذ من الضلال هو إيماننا بأنَّ الإنسان قبل الدولة وأنه، في مرحلة الضياع، هو صانعها. ثمَّة تناقض دائم بل مزمن متجذِّر في القلوب والأذهان، وراء بعض الألفاظ الملتبسة والمفخخة من مثل التعايش والديمقراطية والحرية والتعددية والانصهار والتلاحم...

التعايش، مثلاً، يعني عيش قوم مجتمعين على الإلفة والمودة. إنَّه مساكنة سلمية من الجهات الاجتماعية والاقتصادية والتدبيرية. فهل ينطوي ذلك على تناغم ومشاركة وتبادل؟ في وطننا، يشير التعايش إلى التجاور الإلزامي في معظم الأحيان. هل يفضي بنا هذا إلى وحدة أو أقله أساس اجتماعي تُبنى عليه مواطنة سياسية تحافظ على الخصوصيات؟ في المستوى السياسي يرتقي التعايش إلى ثابتة إيديولوجية وصيغة مؤسسانية مرتكزة على التقاسم الطائفي للوظائف العامة، والبحث الدائم عن توافق بين "النُخب" السلطوية. هذا القانون التوافقي أمسى شعاراً أو رمزاً تأسيسياً، يتيح ابتداع أسطورة أصولٍ ما، وتكريس الحياة المشتركة من حيث هي إيديولوجية رسمية تدعم

الخطاب الوطني. ممَّا يؤسَفُ عليه أنَّ القرب لا يعني اختلاطاً والاحتراس لا يعني تمايزاً. هذه العلاقات ترقى غالباً إلى مجرد تسامح وحسن جوار. إنَّ هذه الممارسات العلائقيَّة بين الطوائف، أكانت حقيقيَّة أم مختلفة، أكانت متعلِّقة أم موضوع حدس، أكانت مغرضة أم عفويَّة، تخضع لقواعد صارمة تقرب الفروق وإنَّما بلا تجذُّر أو أصالة. فمتى ننشئُ أجيالنا الصاعدة (فعلاً) على أساس عيش حقيقي منعق من الأعذار الكاذبة والحيل التي ترتدي ثياباً قشبية من المجاملة والمسايرة والمداهنة والمالقة، وهذا ما نرصده حتى في المدرسة الحربيَّة؟...

الصدق مع النفس أو احترام الذات، هو أقصر الطرق إلى السلام الداخلي وراحة الضمير. أمَّا الصدق مع الآخرين فهو أقصر الطرق إلى قلوبهم شريطة أن يكونوا صادقين هم أيضاً. فمتى نلجأ إليه كما في بلاد النَّاس؟

علَّة عللنا تكمن ههنا. إنَّها الكذب نتيجة الخوف وأمراض الأنأ. لا نؤمن بالدولة، وهي نحن، لأنَّنا لا نؤمن بمصداقيَّتينا فمصدافيَّة الآخرين. قد يكون مردُّ هذا المناخ المرضي المزمن إلى أنَّا لا نزال منذ غابر الأزمنة، وبسبب عقد نقص وتعويلنا على الماديَّة الجوفاء، لم نبلغ سنَّ الرشد ليحكم حكَّامنا المحكومون هم أيضاً بأداء بعيد عن الأمزجة ومنافع الأشخاص والفئات.

هل صغُرُ حجمنا وموقعنا الجغرافي وتركيبتنا التعدديَّة (جداً!!)

تفرض كلّها علاقات شخصيّة بحيث لا يقيم الجهاز السياسي والإداري مسافة بينه وبين المواطنين ليجتمعوا حول موضوعيّة القانون وصلابته، أم أنّ العشائريّة التي طُبِعنا عليها تفرض الذهنيّة الملتوية التي أشرنا إليها والتي تضي على التعامل المؤسّساتي والإداري العامّ طابعاً وجدانيّاً ذاتيّاً وجماعيّاً على السواء.

متى ننتقل من المراهقة السياسيّة إلى النضج في الحياة العامّة؟
متى نتحوّل من شريعة الغاب إلى شرعة "المدينة" - پوليس...
عند الإغريق - بمعناها الواسع الرّحب؟
يقول فيلسوف الحركة هيرقليطس إنّ الشمس جديدة كلّ يوم.
فإلامَ ننتظرُ لنتحرّك؟

تساؤلات ساذجة من شُرْفة حارة المرجان (٢٠٢٠)

يضيق الكون في نظر بعض النّاس، رغم رحابة أرضه، ورفعة سمائه، ويبدو داكناً في عيونهم، رغم ما فيه من بهاء ورواء وجمال، فكأنّهم لا يرون منه إلّا الجانب الموحش الكئيب.

يلجأ "مسؤولون" إلى إبداء التشاؤم والعبوس والتجهم وكأنني بهم قد وضعوا على عيونهم نظارات سوداء فوجدوا كلَّ شيء أسودَ كئيبيًا. هل تراهم، أقله صادقين؟ أو لا يَعلمون، بذكائهم الفطري أو المكتسب، أنَّ النظر في الأشياء يختلف باختلاف عقلية الإنسان المعني؟

ألا يؤمنون بحق الاختلاف بل بضرورته؟

ألا يستطيعون أن ينظروا إلى ما حولهم نظرات مجردة بريئة؟ ألا يملكون فضولية تجعلهم يبحثون دومًا عن حقائق الأشياء، حتى تلك التي يؤمنون بها؟

ألا يتبادر إلى أذهانهم أنه من المفيد استجلاء ما قد يخفى عليهم من شؤون وشجون قد تلحق بهم من قريب أو من بعيد؟

هل تراهم يمثلون من يدعون تمثيلهم من "ناسهم ومؤيديهم ومحبيهم" أم أنهم يمثلون أدوارًا في حلق ما بعده حلق؟

وفي بلاد الناس أناسٌ ينعمون، ولو في سنٍّ متقدِّمة، ببدايع العالم الواسع، حتى عبر التلفزة ووسائل الاتصال والتواصل الأخرى. يمتعون قلوبهم بمفاتيح الطبيعة في الأرياف البعيدة فيرون فيها صورًا سحريةً أخاذة من صنع الإنسان وقبلًا من صنع باري الأكوان. ولدى ندرة من الملهمين في مجتمعنا استلهم من أشعة الشمس لخيوطٍ من ذهب ومن أنوار القمر المطلِّ من السماء الفسيحة، حباك لؤلؤ منظوم. يرون النجوم

اللامعة في الفضاء اللامتناهي كعيون مشعة بالأمل أو بالرجاء
 البسّام، والسهل الموشى بالزهور والأعشاب، كحلة قشبية
 خضراء من حلل الربيع الزاهي، والقمم الشامخة المتوجة
 بالغيوم الملونة، رمز المهابة والجلال في عقيدة أولئك المتفائلين
 الذين لا يزالون يعيشون في جو من الرجاء والهناء، والذين
 يخلقون إلى حدّ ما في محيطهم، عالماً مشعاً بالزهو واللهم
 والطرب والراحة الفكرية الوداعة.

فهل تصفو نوايا بعض "كبارنا" ويلتئمون بالحد الأدنى في مناخ
 من التعاون والتجرد والإيمان، وعندئذ تسلس لهم ولسواهم من
 الشرفاء العقلاء، الأمور قيادها، وتنيلهم الأمنيات طيباتها الحقّة،
 هم قبل سواهم؟

أين المصير؟

في غمرة ما يعيشه المواطن الشريف العاقل، من حياة شغب
 وتعب وقلق واضطراب، نسأل مخلصين:
 هل نكتفي بتكرار الصور بلا تصوّر، من قبل المتوارثين
 وأثرياء الحروب والدهور؟

هل نكتفي بالتدني بلا إيمان وبالإيمان من غير تعقل وبالتطيف بلا تدني؟

هل نضلُّ نجسَ الكبرياء بدلاً من العزّة؟

هل نلهث وراء حقائب دون القيام بمهمّات تُذكر؟

هل ننبوّ وزارة ما من غير تحمّل أيّ وزر؟

هل نضلُّ نتوقّف في حياتنا عند الظاهر دون الباطن؟

هل نتوسّل الباطنيّة بدلاً من الشفافية والسّذاجة بدلاً من البساطة؟

هل نبقي محوّلين الثقافة سخافةً والاستقلال استغلالاً والنعمة نقمةً والتسلية تآسية؟

هل نُحلّ الشعبيّة محلّ الثقة والشعوبيّة محلّ الوطنيّة؟

هل نُحوّل "الطاقة" بل كل "الطاقات" مزيداً من الهجرة للطاقة البشريّة التي هي طاقتنا الأولى؟

متى نسير فعلاً شطرَ المدنيّة والتّقدّم بدلاً من السير إلى عصور الوحشيّة والتأخّر؟

متى نستلهم أقوال موسى وتعاليم الناصري وأحاديث النبي محمّد ﷺ، فنعزف عن مبادئ الأنانية والوراثيّة والتناحر الموسمي

والسطحي والتعصّب الذميمة باسم الدين والإيمان؟

متى تعود أنوار الكهرباء إلى "بلد الإشعاع والنور"؟

إلّا ما نغترف من الثقافة وهماً ونشرب من التقليد سماً؟

إلّا ما نستخدم بعض اختراعات سوانا، حصراً للفتك والتدمير؟

متى نعدل عن التسابق في حلبة توحش العصور الحجرية
واستبداد القرون الوسطى والمجازر الجديدة المبتكرة هنا وهناك
وهناك؟

إلّا ندع شعبنا الطيب يعيش في ظلمة الجهالة ويتعلق بأذيال
الأوهام وأهداب الأصنام تعلق غبار الأرض بأنسجة العنكبوت؟
متى نسعى للقضاء على نزعات الأذى المستشري، وتحويل نيار
الأنانية الجارف إلى محيط التجرد والإيثار، فلا نعود عبيد المال
وعبيد الجاه وعبيد القوة وعبيد نفوسنا قبل كل شيء، فلا يعود
يتورّع بعضنا عن أن يهدم كل هيكل لا تزيّنه أصنام المال
والجاه والقوة والأنانية والاستئثار، بل كل هيكل لا تنتصب فيه
صنمية بالذات؟

ما مصير نخبة العاملين في صمت، الذين لا ينالون إلا القليل
القليل من حقوقهم لبذل مزيد من التضحيات في سبيل الوطن،
في حين أنها تذوب كالشموع في ظلمة مآسينا؟
اللهم ارحمنا جميعاً بعظيم رحمتك!

في دور الشعراء!

العرب يستشعرون على طريقتهم وبالتواتر وينظم بعضهم الشعر فيجيدون. هذه زبدة وجدانهم ووجودهم...

للشعر والشعراء دور بارز عندهم. ومنذ تطاول القهر العثماني على الإنسان العربي، خرج الشعر إلى مربد العمل الوطني أو القومي الواسع، وأمسى أداة فعالة في مسيرة الكفاح ضدّ السيطرة والظلم والتتريك التي مارسها غلاة الاتحاديين على شعوب الإمبراطورية العثمانية، فكان قادة العمل الوطني والقومي من جمهرة المثقفين المتنوّرين، ولا أظنّ مثقّفًا، في تلك المرحلة، لا ينظم الشعر في ما يرغب من قولٍ يثير به حماسة الآخرين، لأنّ الشعر أوفر صدًى من النثر في مخاطبة الجمهور وحثّ وجدانه على العمل الوطني. فالجمهور يعشق الشعر في محيطه شبه الصحراوي ويحفظه ويرويه في الليالي الماطرة والمواقف العنيفة.

وقد اعتمد المناضلون في مسيرتهم النضالية ثورةً ضدّ أشكال التميّز القومي والطغيان العنصري، فأمست العقيدة الشعرية محلّ شبهة لدى الحاكم أو السلطان وهي نافذة المثقّف ووسيلته إلى العقول والقلوب.

الشاعر قبل الناصر، يتغنّى بمجد أمته الغابر، يندب حالها الحاضر، مستحثاً ضمائر الشعب مستنفرًا همهم. إنه شعلة متقدة. بالكلمة يدعو إلى الثورة أو التمرّد، وإلى جانبه سائر المثقفين المنشئين، وبالحرف يصنعون الجملة المفيدة في معادلة الكفاح السياسي، وليس لهم غير هذا الغناء الأبدي يُصدّح به فوق كل هضبة يرتقيها المرء ضدّ أيّ فاسدٍ ومغتصبٍ عاتٍ. هاجس المثقفين الخروج من هيمنة الأعجمي أو المستبدّ ومن نهبه الخيرات، والعيش في ظلال الاستقلال والحرية والمسامحة. لذا نراهم يعلنون رأيهم أمام الحاكم المستبدّ، سلاحهم الكلمة وفنّ الشعر الذي يمسي أنشودة على فم الناس سرّاً وعلانيةً.

أتاح الانتداب الفرنسي للأغنية الوجدانية أن تظهر على وجه هذا الفنّ القوميّ وتذاع على المنابر والصحف، فيما ظلت الأنشودة وهي الصوت الأقوى في التحدي الوطني ومقارعة الانتداب، توزّع سرّاً بين الناس، وقد طاردت سلطات الانتداب حتى أمست القصيدة تُكتب وتوزّع بلا توقيع، كأنّها منشور سياسي.

الأدب عموماً والشعر خصوصاً أداة نضالية ضرورية وليست كافية. إنها رئيسة في إذكاء الحماسة الوطنية والاندفاع القومي، وتألّيب الغضب على الخصم المشاكس والعدو الأجنبي، وسوف

يبقى هذا الصوت الصّادح في مسيرة الإنسان الفنّان، مرآة الفعل الإنساني، وإن اختلفت مهامّ الأنشطة في الباقيات من الأعوام قبل... نهاية الأزمنة.

هذا، وليتجنّب بعضهم، في ثرثراتهم، مساخر تضحك الثكلى وتدمي الضّاد والأجانب، على السواء.

علّمونا أن نتعلّم من الماضي !

من لا يسعه استحضار الماضي، يقع في فخ الإعادة. العودة العابرة إلى الماضي تنعش النظر فترمم ما مضى وتجعله أكثر ملاءمةً لوظيفته الأولى وهي التطلّع إلى المستقبل.

الماضي لا يموت، حتى إنّه لا يمضي. إنه أفضل سبيل في تخيلنا لما سيحصل.

الماضي مهدنا وليس سجننا. في بريقه الساحر خطورة ومناشدة. إنه معدّ للاستلهام وليس للتقليد الأعمى، للمتابعة وليس للاستعادة.

يمكننا أن نَكَنَ الحياةَ في العودة إلى الماضي ولكن، علينا أن نحياها في التطلُّع إلى المستقبل. نعيش في الحاضر ونحلم بالمستقبل ولكننا نتلقَّى الحقائق الخالدة من الماضي.

لا يرشدنا الماضي إلى ما ينبغي فعله بل بالأحرى إلى ما ينبغي أن نتلافاه. ذلك أن إصدار الحكم ينطلق من التجربة وحسن التقدير ينبثق من التجربة السيئة.

عندما يفيدنا الماضي بأنَّ في أنفسنا أكثر مما نستخدمه، نبتهل إلى الله عزَّ وجلَّ ليملأنا من قوته للقيام بالمزيد. قد يبدو هذا القول حكاية من نسج الخيال - الذي هو جزء من الواقع! - ولكنه مائل لا لبس فيه ولا تزويق. فالعناية الإلهية ترافقنا في كلِّ زمان وكلِّ مكان.

ما أجمل الأدب القديم عرساً زاهياً مشرقاً منطوياً على أسمى المعاني التي ترتقي فتلتقي أو تلتقي لترتقي. ما أجمل البراعة المبدعة والمتجددة التي خطَّت ولماً تزلُّ على جبين الأفق، وفي ضمير الزمان والإنسان، أبدع اللوحات وأروع الكلمات.

في وقت سكت فيه أكثر الكتاب، تبقى الكلمة المبدعة تلك تغرد مع السحر وتنتثر الروائع مع شذا النسيم وبريق النجوم.

العطاء الروحي، هو العطاء الحق الذي يتدفَّق صوراً وعبيراً وندى. والشاعر الشاعر يسكب روحه التي هي من روح الله،

في شعره، فيمتزج بالنسيم العليل وبالنور المنفلت من ثغر
الفجر، حينما يتنسم الفجر.

الإرهابُ بين الشرق والغرب!

كثيراً ما يتبيّن أنّ الإرهاب مجرد عرض مسرحي. إنّه
إستراتيجية ضعف يتوسّلها أولئك الذين لا يجدون سبيلاً إلى
السلطة. وللإرهاب أسباب ودرجات.

في الأزمنة الأخيرة، تسبّب إرهابيون، كل سنة، بمقتل عشرات
الضحايا في الولايات المتّحدة. وفي الوقت عينه، أودت السمّة
وما إليها من أمراض وحدها، بحياة الآلاف من الأميركيين. وها
إنّ بعض المشروبات والوجبات السريعة والأطعمة الجاهزة
تؤلّف مخاطر أشدّ فتكاً من تهديدات القاعدة وداعش.

أنّي للإرهابيين إذاً أن يتصدّروا العناوين الرئيسة في الصحف
العالمية ويغيّروا الأوضاع السياسيّة في العالم؟ إنهم يدفعون
العالم إلى المبالغة في ردّات الفعل. الإرهاب، في جوهره،
عرض مسرحي. يقدّم الإرهابيون على مسرح الأحداث مشهداً

مخيفاً من العنف يستحوذ على مخيلة العالم ويحوّله ضده. يودون بحفنة من الناس فيتسببون بخوف الملايين على حياتهم. وفي سبيل كبح جماح هذه المخاوف وتهدة الخواطر، تردّ الحكومات الرشيدة على مسرح الإرهاب بعرض شبه هزلي فَرَضاً للأمن، فتتنظّم مشاهد ضخمة من القوة المفتعلة. وفي معظم الحالات، تطرح المبالغة في ردّات الفعل على الإرهاب معضلات أكثر تهديداً للأمن والأمان من تلك التي يتسبّب بها الإرهابيون أنفسهم.

الإرهابيون أشبه ما يكونون بذبابة تحاول أن تدمّر متجراً. إنّها من الضعف بحيث تعجز عن أن تهزّ كوب ماء واحداً فأنى للذبابة أن تدمّر متجراً؟ إنّها تعثر على ثور فتلجّ أذنه وتحدث فيها طنيناً مزعجاً. فيتميّز الثور من الخوف والغيط ويدمّر المتجر.

هذا ما حصل بُعيدَ الحادي عشر من أيلول يوم حثّ أصوليون الثور الأميركي على تدمير المتجر الشرق-أوسطي المتداعي أساساً. وبات الأصوليون اليوم يترنّحون في غمر الحطام. وثمة عدد زهيد من الثيران السريعي الهيجان في عالم اليوم وإنّهم لبسوا غالباً ثياب الحملان.

إنّ نجاح الإرهاب أو فشله وقفّ على مَنْ يريد فعلاً أن يكافحه. فإنّهم سوّغوا لمخيلتهم أن يأسرها الإرهابيون، فبالغوا في

ردّات فعلهم على مخاوفهم، سيبلغ الإرهاب مأربه. وإنّ هم حرّزوا مخيلتهم من كابوس الإرهابيين، وتجلّت ردّات فعلهم على وجه متوازن في مناخ من رباطة الجأش، مُنيّ الإرهاب بالإخفاق ولو بعد حين، ولو إلى حين.

ولكن، أليس العقل غير المروّح والمُدبّر، في النتيجة، هو جرثومة الحروب والإرهاب، وهو أشدّ فتكاً من الغرائز أو الأوبئة الزاحفة تحت كلّ سماء؟

خشيتُ، في حلّي وترحالي، ظاهرة الإرهاب وحاولتُ المساهمة في معالجته، فانتهى بي المطاف إلى الغرب أكافحه فيه بالكلمة والمواقف الهادئة وإنما الهادية، عسى ولعلّ!

حريّتهم ... والحرية!

الحرية من صفات الإنسان الأساسية. بيد أنّ الحرية حريّتان: حرية حقّة، هي تخيّر الإرادة للأشياء الخيرة، في طريق الصلاح، وحرية موهومة، هي الإباحة للفرد والجماعة، اتباع الشر، وإقامته في الإلفة، بإزاء الخير، بل فوق الخير. وهنا

ضلال لا يقبله العقل، ولا النقل، ولا الدين. إذ إنّ الدين نصير، والمحامي عن حقوق الحرّية، والمساعد للبشر على العيش في اطمئنان ورفاهية، ما ينجم عنه أن لا حرية إلاّ حرّية أبناء الله السائرين تحت ظلال الدين القويم، وبهذه الحرّية الصحيحة، لا بالإباحية الممقوتة أو المغرضة القاتلة، تقوم الحضارة المثلى والنقّذُ المفيد، والروح المتطوّرة المقبولة، وهي كافلة النجاح والفلاح في سبيل الكمال المادي، والمعنوي، والمدني، والروحي.

ومهما بانّت الحكومات مقتدرة، وأربابها ذوي حنكة سياسيّة، لا سبيل لها إلى قيادة شعبها إنّ هو خَلَتْ منه الفضائل الأدبيّة وفشت بين ظهرانيه الرذائل. وعليه، من أراد إدارة قوم، تحتمّ عليه أن يعدّه لهذه الحالة، وبذلك يهبه ويهب "الدولة" الحرّية المسؤولة، المبنية على احترام الذات ومحبة الآخر والإذعان للقوانين ومنها القوانين الدوليّة.

عسى أتباع الديانات السماويّة يدركون هذه الحقائق فيقدرون نعمة الحرّية الحقّة حقّ قدرها فيستمدّونها من ينبوعها الروحي المحرّر ويجهدون في المحافظة عليها أشدّ المحافظة. ولكن، ما الحيلة ومعظم أتباع الديانة اليهوديّة، بدلاً من اعتبار أنّ لهم رسالة تحرير الذات والعالم تحريراً جامعاً شاملاً مانعاً، رأوا أنّ تكون رسالتهم إلغائيّة إقصائيّة حتى العنصريّة؟

ديانات مُستحدثة!

ثمّة ديانات مستحدثة نشأت أخيراً، ليس في صفوف غلاة بعض الأديان، وإنما انطلاقاً من مختبرات البحوث في العالم. فمثلما سيطرت الاشتراكيّة على شعوبٍ إذ عاهدتها على تطوير العلائق البشريّة عبر الصناعات و"إلغاء الطبقات"، ثمّة مَنْ يَعُدُّ في الغرب بمعجزات علميّة وتقنيّة ستتجاوز قريباً كلّ عقل وكلّ تفكير. ويمسي الخلاص حصراً في سياق ما يجري على هذه الفانية.

هنا، يتفنّن المُحتكرون في ارتداء لباس الثعالب من غير أن يرفعوا رؤوسهم إلى السماء... ويتأملوا نجومها اللامعة ويعلموا أنه سوف يأتي يوم تأفل فيه من عليائها. ألا فليتأملوا الحياة التي ينغمسون في لذائذها دون سواهم، وهم دائبون في إحراز متاع الدنيا بشتى الأساليب الملتوية. وليعلموا أنّ الحياة التي ستصافحهم مجدّداً بيمينها وتصفو لهم، ستقلب عليهم لا محالة، وستصفعهم تلك اليد، صفعة مؤلمة فيها كل معاني الذلّ والاحتقار. حينئذٍ يسخر منهم أبناء سواهم من الأمم، ويشمتون بهم، ويستنزّلون عليهم لعنة الأرض والسماء، فيُدركون، بعد فوات الأوان، أنّ مَنْ يحاول أن يربح الهناء الأناوي الإقصائي بالمال والتقنيات المريبة، سيجد صفقته ولا شكّ خاسرة.

وها إننا نسمع دولاً ناشئة تستنزل، مجتمعةً، اللعنات، على أولئك المحتكرين الذين ملأوا خزائهم باللجين والمال، وأغلقوا بابها دون أبناء الحياة ليموتوا يأساً. هل يبقى المقتدرون يتجاهلون أنهم كذاك الأب الغني القاسي. ولكنهم بدلاً من أنْ يمسكوا مقدرات الكون عن ولد واحد، راحوا ينتشلونها من أبناء جنسهم، بما يجيدونه من وسائل تترفع عنها أدنى الحشرات فكانوا - على الرغم مما يتظاهرون به من محاسن الخصال - جلاّدين قساة يرفعون سياط الإرهاب على بسطاء العالم ومعوزيه حتى في استغلال ثرواتهم الدفينة، فيتمنى هؤلاء التعساء أخشابَ النعوش ويحنون إلى مضاجع الفناء.

بين الواقع والمرتجى!

في عالم يجتاحه إعلامٌ في غير موضعه، بات الغموض سيّد الموقف يملأ فضاءنا ولا يدع مجالاً للحركة والتفكير. هناك أصوات يتردّد صداها في آذاننا وأشباح تمرُّ أمام عيوننا كراقصات في عرس أو كنائحات في جنازة. لكلّ منا، بلا شكّ،

مساهمة ما في النقاش الدائر حول مستقبل البشرية، ولكن، من الصعوبة المحافظة على رؤية واضحة جليّة من هذا القبيل . فقد سُدَّت في وجوهنا المسالك وقُيِّدَت خطواتنا فانتصبنا في أمكنتنا كدُمى متحركة في حين أدخل بعضهم في خلدنا أنهم المصدر الأوّل والأخير على هذه الفانية.

معظم قومنا لا يسوِّغون لأنفسهم أن يبحثوا عن الحقيقة، لأنّ ثمة شؤوناً أشدَّ إلحاحاً ينبغي لهم الاضطلاع بها كأنّ يمضوا إلى أشغالهم ويعنوا بأطفالهم أو يحنُّوا على كبار السنّ من أهلهم. الثابت أنّ التاريخ لا يلاطف ولا يرحم. ولئن كان مستقبل البشريّة يقرّر في غيابنا - لأننا جدُّ مُشغلين بإطعام أولادنا وإلباسهم - فنحن جميعاً لسنا البتّة في مأمن من تبعاته، ومع ذلك يأخذنا الزهو وتطيح بنا الأوهام. هل هذا ظلم؟ أجل، ومن قال إنّ التاريخ عادل؟

لن تبلغ حكمتنا حدّها، وسيظلّ اهتمام الخيرين أولاً بإعطاء الطعام والكساء. ولكن، لا تزال إنسانيتنا قابلة لتكثيف الجهود وإحداث نقلة نوعيّة ذات طابع أخلاقي.

يمكننا، نحن معشر الكتّاب، أن نوَفِّر للبشريّة مزيداً من الأنوار ونساهم في المساواة بين الحقوق والواجبات. هكذا، يمتدُّ اهتمامنا ويتّسع ليغمر كلّ حياتنا كموجة جارفة للجاء الأجوف والتسلُّط الأرعن. "والمستعلي عند الناس رجس عند الله".

وليكفَّ بعض النافذين عن الترنُّج والدوران وكأنَّهم جرَّعوا
خابيةً من الخمر فيما استحال حتى ما يدور في فلكهم جهنَّم
بعينها!

الرئيسُ المنشود!

نريده يعملُ لوطنه أولاً وآخراً، لتنظيم الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية، ولو لقي مقاومة الدخلاء وأذئابهم. نتمنى أن يكون له لبلاده شعورٌ وطنيٌّ فيعملُ لخير الأرض، ويتطلَّعُ إلى ما هو أسمى من البلد، بنظرة العاقل المفكر والاجتماعي المدبر. يدرك أنَّ الحرية معدومة وأنَّ الثقافة مدفونة أو مهاجرة. وينتهي إلى أنَّ شعوبنا لا تعمل متكاتفه ولا تسعى متآخية، وهي مفككة الأوصال فقيرة بالمبادئ والرجال.

نريده يرى في اتحادها قوَّة، وفي تجمعها حول الدولة دعامة. يفكرُ بثاقب نظره، ويبدع بواسع ثقافته واسطةً للاجتماع والتفاهم في سبيل نضال موحدٍ وحرية شاملة على السواء.

يعالج الرئيس المنشود في اتزان وروية مشاكل شعوبنا ويحلّ أمراضها ويصف الدواء الناجع لها في صراحة، وأسلوب جذاب مشوّق، على طراز الروايات والملاحم. يطوف حول الحمى يهيم بالوطن وأهله.

يعرض الرئيس المنتظر لأسباب الخلل النازل والجهل الواقع، ويُنذر الأمة وحتى "النخب" الاجتماعية والثقافية، بشرّ العقابَة وسوء المصير، وينحى باللائمة على "الزعماء" وحتى العلماء... لتقاعسهم عن الاتفاق والسعي متّحدين للنهضة.

هكذا تنهض الشعوب: يوم يدرك كبار المسؤولين أنهم ليسوا سوى خُدّامٍ للشعب وليس العكس. هكذا يشتهر أمر الرئيس وتنشوّق الأنظار إليه، وتتعلّق القلوب به، ويصبح علماً من أعلام الحرية والفكر في وطنه ودنيا الشرق...

هل يكون حظ الشرفاء العقلاء من هذه الأفكار البديهيّة، قليل، فلا يستمتعون بثمره جهادهم شبه المجاني، ولا تكتحل عيونهم بمرأى الحرية (المسؤولة) تخيّم عليهم وعلى سواهم؟

هل يُكتب على أمثال هذا الرئيس المنتظر، أن يحفظ التاريخ أسماءهم بحروف من ذهب، بعد أن ترسل شعوبنا الرحمة على أرواحهم الطيبة الطاهرة؟

الهدف المنشود!

بين شرق انفعاليّ الهوى وغربٍ بارد الطبع، هناك اعتدال يُعرض صاحبه بموجبه عن الاستهلاك المتهافت ويقتصر على النزر الذي لا بدّ منه لبقاء الجسم قادراً على الجهد والكفاح وخدمة المجتمع. هناك فرحٌ منح الذات بعيداً عن التألق ببريق خدّاع، بريق القوّة و/أو الجمال ولو متستّرّين.

الفقر الحقيقي هو فقر الروح والقلب، فقر المنكمش على ذاته وعلى مقتنياته العقيمة، وفقر المنعزل الذي هو أشدُّ إبلاماً والأعسر علاجاً. يفتقر عدد من الخلق خصوصاً إلى ما هو جوهري. فتري وجود الميسورين أحياناً أعمق فقراً من المحرومين الذين ينبغي أن نعكف أيضاً على إغاثتهم.

الحبُّ وحده هو الحلُّ على أن يكون فاعلاً، يُنسج من لفات صغيرة ويتحرّى حاجات الآخرين فيبلسم آلامهم بكلمة طيّبة وبسمة مشرقة ويد دافئة أو إصغاء إلى مَنْ يصبو إلى الإفضاء بما يُثقل صدره ويقض مضاجعه.

من زمان، بات قلبي لا يعرف الحقد لأنّ الحب فتح عينيّ أكثر ممّا فعل العقل، بأشعته السحرية. وليس مَنْ يكتب حصراً بالمداد

كَمَنْ يَكْتُبُ أَوَّلًا بدم القلب. الحبُّ متعدّدُ الأوجه والمراتب. يتحوّل من عمر إلى عمر ومن جيل إلى جيل، وعندي أنّه يتميّز قولاً وكتابة وممارسة، باستلهام الرومنسيّة، تنتابه مراحل يطغى فيها الوجدان والتوجّه شطر التناغم والعواطف التي تعصف بنفوس العشّاق والأحبة، ويتفق شيئاً ما مع الأوضاع الاجتماعيّة القائمة. يلتقي الحبُّ والمحبة في وجدّه وحرارته ولهفته وجيشانه. تتباهى الحالتان بجوهر الله ووجود الناصري. خلق الله الإنسان من لحم ودم ليُظهر حبه أو محبّته الإلهيّة الفائقة وعبر تجسّد ابنه. وهل كان الله ليُعنى بالكون ومَنْ وما فيه بلا حبٍّ أو محبة لامتناهية؟

ألا ينبغي أن تُسفر المحبة (أو الحب) الحقيقيّة عن أخوة عالميّة تتجاوز الانقسامات السياسيّة والعرقية والقوميّة؟ ألسنا جميعاً أسرة واحدة بسلف واحد يحبُّ وبخالق مشترك؟

الثورة تفعيل للإبداع الروحي والعقلي في نسيج التاريخ. إنّها ثورة الحب الكبير الآتي من رجاء البرّ ورجاء العدل.

هل يتجلّى ثوّارنا في المستقبل القريب مُستتيرين بهذه المعرفة العظيمة التي يعطيها ذوق العلم وذوق القلوب؟

هل ترانا نوفّق بين العقل والقلب مثلما يفعل الأجنبي على العموم؟

تفوق الغرب؟

في الثلث الأخير من القرن الماضي، تفتّحت أذهان العرب إلى حدٍّ ما على آفاق الوعي القومي وأخذت أفكارهم تُضاء بنور الحق والحرية وحبّ الكرامة الفطريّة، وراحت همهم تتحفّر للوثوب والانقضاض على أولئك الذين قيّدوهم بسلاسل الظلم، وعملوا لخلق لسانهم وكمّ أفواههم وتفريق عنصرهم الواحد إلى شيع وأحزاب.

لهذه اليقظة العفويّة، بلا جوهرود، تجلّى قادة أوفياء بُسلاء يجمعون الشمل، ويوحّدون الصفوف ويسيرون في الطليعة، ويذكّون نار الحمية والحماسة في قلوب متعطّشة إلى الانعتاق من ربقة الاستبداد المرير، وليقودوا جحافل الأباة الناقمين، إلى حيث يحطّمون أصنام الغطرسة البغيضة والعظمة الجوفاء.

تبدّل العصر، وأمسى الحاكم بأمره في عقر داره بإشارة من الخارج، ولكنّ حركات التحرّر ظلّت عمومًا بلا حوافز جوهروديّة جذريّة.

لا ثورة حقيقيّة في دنيا بلا فلسفة وراءها ولا منهجيّة ولا أهداف مُعمّقة. لذا، إن أنصاف الآلهة المتربّعين على عروشهم،

منصرفون عن الإصلاح إلى التَّعَمُّ بمباهج السلطة ولو عرجاء
 زرعاء، ومفاتن الحياة. حركة بلا بركة تفقر إلى فلسفة
 وعقلانيَّة مُرَوَّحَة - ما أُطلق عليه تسمية الجوهرود الذي يوفِّق
 بين الجوهر والوجود اللَّذَيْن لم يتناولهما فلاسفة العرب في
 نظري بل اكتفوا عمومًا بفلسفات الخبر والقيَم المتناقلة.

سيظلُّ شرقنا مأخوذًا برهبة الحكم وكل شيء يُنذر بانفجار
 متكرِّر للبراكين البشريَّة. لذا، آثرت شيئًا فشيئًا أنْ أنطلق إلى
 مناخات للاندفاع منها إلى مُثلي العليا. فلغة الضاد يجب أنْ تظلَّ
 جليلة القَدْر، مدويَّة الصوت، مبسوطة اللواء، والأوطان العربيَّة
 ينبغي أنْ تغدو مَصونة من كيد الكائدين وعبث العابثين من
 الخارج بفضل عقولهم الشريرة ومن الداخل بسبب الغرائز التي
 لا تعرف للغرائز حدًّا، على نقيص الغرائز الحيوانيَّة.

غرائزنا والعقل!

لم أَسعَ يومًا للطعن الجارح البليغ الذي يتوسَّله رعا ع القوم.
 يسخطون بشدة ويثرون بشدة ويرمون مَهجُوهم بشدَّة من غير

ترو ولا هوادة، ينفثون كلَّ حقدهم حتى لا يدعوا أملاً لشدة ما يضمرون من بغض. إنني أدغدغ من انتقده وأهزأ به أدبياً من غير أن أذكر اسمه.

على نقيض ما يقال، العقل جرثومة الحروب والعدوان وليس الغرائز في عفويتها وعمقها. لا ريب في أن على العقل المروّحَن أن يُنظّم الوعي الحدسي الذاتي للاطمئنان إلى حسن سير سلوكنا. ولكنَّ غرائزنا هي أساس حكمتنا فلنستقرِّئها ونتبعها لأننا لا نستطيع أن ندرك ما لا نشعر به...

الثابت أن الاندفاع بلا تعقل تهافت والتعقل بلا اندفاع ذريعة أو بديل مؤقت.

العمليات الحسابية لا تصنع الأبطال. وارتجاف المشاعر ينطوي على إشارات أوفر إقناعاً من الاستنتاجات الجافة والموتقة من قبل العقل. إننا، إذ نرتدي رداء العقلانية الباهتة والتمايز الشكلي، نكاد نخفي ما يُحرِّكنا في عمق أعماقنا ليسطع في المستويين النظري والعملي.

الأنظمة تموت والغرائز تبقى. وما من شيء ينبثق من تلافيف الدماغ ما لم ينطلق قبلاً من المشاعر المباشرة، علماً بأنَّ الأصيل يتفوّق على البديل والطبع يغلب التطبّع.

الغرائز تسير الحيوان أفضل من الإنسان. إنها، في الحيوان، صافية نقيّة. وفي الإنسان، يضلُّها العقل المدبّر والحيلة البارعة.

في المنطق الصرف خراب للروح. وإنَّ قصة الحوادث البشريَّة تشير إلى أنَّ مرَدَّ جانب كبير من تصرفاتنا إلى دفعنا الحيويَّ أكثر منه إلى العقل الذي نتباهى به.

كم خلبت حضارة تدمر مخيَّلة شعراء الجاهلية. فوصفوها في أشعارهم وجاءت سجلاً لها أكثر من كتب التاريخ والمطوَّلات. أليس الشعر ديوان العرب؟ العقل المُرَوَّحَن كالذي نلمسه في القرآن الكريم يُظهر أنَّ القصائد (المعلَّقات) قد مرَّت بنتقيدات وهذبت وعُدلت فأصبحت تتفق مع روح (بل قُلْ عقل) الإسلام.

العقل والقلب!

من المفارقات البشريَّة أنَّ العقل (غير المُرَوَّحَن) شأنه أن يكون جرثومة الحروب وليس القلب أو حتى الغرائز التي قد تُستخدم لشنِّ الحروب. هذا ما تقيم بعض الفلسفة الدليل الساطع عليه. لذلك، من الحكمة أن نؤمن بالقلب رغم تقلُّبه! يمكننا أنْ نقتفي قلبنا لأنَّنا نثق به. الدساتير والقوانين وقواعد الحياة ليست بشيء إزاء ما يملِيه علينا قلبنا. الإنسان يغدو إنساناً بذكائه ولكنَّه

أساساً إنسان بقلبه. وما يراه القلب دائماً يراه دوماً قبل أن يراه العقل. بفضل القلب يتمكن المرء من الرؤية الصحيحة لأنّ الأساس يستغرق على عيون العقل. الفكر الكبيرة تنبثق من القلب. وللقلب معقوليّة لا تَكْنَهُها أنوار العقل. وعندما نتخذ قراراً ينبغي أنْ نستخدم قلبنا الذي منحناه الله كما إنّه منحنا أنوار العقل. الأولويّة إذاً للقلب والوجدان وليس للتدبير العقلي. والنحو مثلاً هو تقويم اللسان وضبط النطق وإتقان الكتابة السليمة من المعايير. ولكنّ تذوق الآداب الرفيعة من شعر ونثر، هو الهدف وهو ينبثق أولاً من محبّتنا للغتنا الحبيبة. ليس القصد في تعليم النحو تكديس معلومات وقواعد في ذهن الطالب، قد يحفظها حفظ استظهار وببغائيّة ويعجز عن الانتفاع بها في حياته كاتباً أو قارئاً أو متكلّماً أو حتى باحثاً. ولهذا نعتقد أنّ تذوق الأدب ينبغي أن يسبق تلقّن قواعد النحو والصرف. ومتى استقامت السليقة البلاغيّة عند الطالب بالحدس والمعايشة الأدبيّة وعبر الأهازيج، هان عليهم أن يهضموا قواعد النحو مهما استعصت، وأن يتبحّروا فيها ما شاءت لهم المناهج المدرسيّة أن يتبحّروا. ثمّة شعراء مجيدون نظموا الشعر عن سليقة طبيعيّة وتلقائيّة عفويّة، لا عن تطبيق جامد لقواعد العروض الصارمة وأوزان الشعر المقرّرة.

إنّ ما يصحّ في ما هو من اللغة يصحّ، بأولى حجة، في مجالات

أخرى وفي حلبة الحياة المَعيشة. ينبغي أنْ نعمل دوماً للتوفيق بين العقل والقلب، ولكنَّ الجفاف يكاد يأكل واحات القلوب، ما يتهدّد حكمة العقل المدبّر لمصلحة الآلة في أحسن الأحوال.

إلى الحكماء!

في هذا الجو الكالح الرهيب، هل يشرع أقطاب الحركة الفكرية من أبناء الوطن، يسعون ويعقدون الاجتماعات تحت ستار صفيق من الخفاء والكتمان، ورائدهم إنقاذ البلاد من محنتها، فقد كفاهما ما لقيت من عنت وعسف وطغيان... وحدها حكمة الحكماء شأنها أنْ تحرّرنا ممّا نتخبط فيه من مصائب.

الحكمة نور العقل وشعاعه الوهاج، والحب ضياء القلب ولحن الوجود الخالد.

أيُّها المقيمون في الذرى، يا من يبحثون عن الحقيقة الحقيقية، هل عثرتُم عليها واهتديتم إليها؟

الحقيقة الحقيقية هي الجوهر الذي انفجر منه هذا الوجود. هي العلة الأولى التي أوجدت الكون وقبس النور الأوّل الذي أضاء العدم.

لا أزال أبحث عنها منذ عام ١٩٦٨ في كل مكان... وراء كل أفق، وفي حنايا كل منعطف، وعلى شاطئ كل بحر، وقرب كل برعم يتفتح لنسمات الفجر، ويبسم لأنوار الصباح. ولكن، هل أجدها وأحظى بمعانقتها؟ لو بلغت الحقيقة أذهان الشعوب لزالَت أسباب الثورات.

فيا أيُّها المعتزلون والمنقطعون في الصوامع الوداعة، والمنقطعون إلى التأمل والفلسفة والآداب، والباحثون آناء الليل وأطراف النهار عن حقيقة وجودكم، هل أدركتم ما تنتشدون؟ أم تراكم لا تزالون سائرين وراءها في شوق وهيام؟ لا يعيش الأديب الأريب إلاَّ تحت ظلال الحق والخير والجمال. إنه مؤمن بحقيقة وجوده، إيمانه بالله، وبفائدة هذه الشمس المتألِّقة في قبة الفلك.

ما تلوتُ حكمةً من حكمكم، أيُّها الفلاسفة والأدباء، إلاَّ أصابني الخشوع وانهمرت مني الدموع. فلم تبكي عيني ويخشع قلبي، عندما أصغي إلى آيات إبداعكم؟ أعمدوا أقلامكم في قلوب الظالمين والمارقين من الدين وإلاَّ فاعمدوها في قلوبكم!

العربُ بين الفلسفة والشعر!

لا استقرار عند العرب على العموم، لذلك، لا كبير تبصُّر وغوص على الأعماق. لم يتناقلوا العلوم بالمعنى الدقيق للعلم. لم يستقصوا الظواهر ولم يربطوا العلة بالمعلول. علمهم بالأنساب ليس تاريخاً، ومعظم تشخيصاتهم للأمراض ليست طباً. معلوماتهم صائبة أحياناً ولكنها أوليَّة اكتسبوها بالتجربة المباشرة، واضطرتهم إليها أحوال المعيشة. ينقصها التعليل والتدقيق وما يستلزمه التدرب على مناهج العلوم. هذا ما أوضحت في كتابي الأخير فلسفات الثورة.

لم تكن للعرب فلسفة حقيقية. لذلك لم يحققوا أيَّ ثورة حقَّة. أفكارهم غير مُمنهجة تفتقر إلى الدقَّة والبرهان الساطع. لديهم حكم تخلَّت كتاباتهم، فيها آراء من قبيل الحدس. يدلون بها ولا يهتمُّهم أن يعتنقها القارئ أو يرفضها. يدعونه إلى شرب الخمرة معهم ولا يهتمُّهم أن يلبي الدعوة أو يرفضها. رحم الله أبا نواس، سيّد الندماء، القائل:

أثنِ على الخمرِ بآلاتِها وسَمِّها أحسنَ أسمائِها

أجل، أجدادنا قوم لهم في مفاخر العطاء والإبداع باعٌ طويل. وقد هيمنت عندهم الخواطر الغنائية المنبثقة من الحب والجمال والمرفرة في مجاليهما. أوقف شعراؤهم ولماً يزالوا الشعور وصقلوا الإحساس وإنما شدّدوا على فلسفات الخبر لا الكينونة. اعتبروا أنّ القلب الخالي من الوجدان هيكल هجرته قدسيّة الإيمان والقيم، وروضة ذوّت فيها صنوف الزهر والريحان. أنوّه بشاعريّة أبناء جلدتنا وعفويتهم، ولكنني أدعوهم إلى مزيد من الأناة وبُعد النظر وتعمّقهم في سبر غور الإنسان والأشياء. فيبسطون أفكارهم في وداعة ويدافعون عنها في غير تهافت.

الثقة... الثقة!

الثقة واجبٌ لازبٌ علينا لأنّ عدم الثقة أشدُّ مرارة من الشعور بالوحدة. وكما أنّ عدوى المرض تتسبّب بالمرض، كذلك إنّ عدوى الثقة شأنها أن تفضي إلى مزيد من الثقة. قد يتعرّض المرء للخداع إذا بالغ في ثقته بالناس، ولكنه يتألم إذا لم يثق بهم بقدر ما.

الإيمان بالشركاء والزملاء هو جزء من إيماننا بالله. حتى إنَّ الذين نثق بهم يشاركون في تحقيق ذواتهم. وكثيراً ما يترتب على ذلك الذي لا يؤمن بالآخرين ألا يرى أيَّ إيمان به في صميمهم.

لا نفقدنَّ الإيمان بالإنسانية ولو عبر عولمة لا تغالي في المكننة على حساب الإنسان. إنَّ كلَّ إنسان يعجز عن تجاهل الإنسانية. فلو لا الإنسانية لما كان له الحصول على أيِّ شيء: العالم يحتاج إلى كل مكُوناته.

الثقة واجب في حين أنَّ الشك المنهجي يحرِّزنا في ميادين العلم والعمل. نَظَرَ بعض المستشرقين بكلِّ ثقة في علومنا وبحثوا عن مخطوطاتنا وتسابقوا إلى اقتنائها وأقبلوا على دراستها وترجمة طائفة منها وتذيلها. إختاروا عيونها ودققوا فيها وفسَّروا ألفاظها. أحسنوا في خدمة لغة الضَّاد حتى لأبنائها: أجادوا في تعريف الحضارة العربيَّة. وهم لا يزالون يتابعون هذه الخدمات الجلَّى بما يُنشئونه من المباحث والمقالات. هذه الأنشطة يقوم بها حتى الساعة كبار الباحثين منهم في العالم العربي وخارجه. التكامل والتماسك من ثوابت الحياة البشريَّة، والثقة في ذلك فضيلة الشرفاء العقلاء. لذا، يجب على الغني، مثلاً، ألاَّ يبخل ببعض ماله على الفقير، لكيلا يتمرَّد هذا عليه وعلى النظام الاجتماعي ويسعى لهدمه، وندخل في دوامة جدليَّة السيِّد والعبد!

إيماننا واقعنا!

الإنسان هو إيمانه الذي قد يُبنى في أحكامه على الأساطير والخرافات. هكذا الشعوب كافة. أن يؤمن الإنسان بأن الحياة تستحق أن يحيها، يقوده إلى ابتداع واقع ما جميل حوله. ألا تعيش الزهور وتنمو إن نحن تعهّناها بعناية يومية؟ أُلِّمُّ بأحلام متسامية تصبح متسامياً شامخاً. تطلُّعك هو وعد بما ستكشف النقاب عنه في نهاية المطاف. والإيمان بمستهل مسيرة مشكوك فيها هو ما يضمن خاتمة لمسعاك على جانب من النجاح.

نحن ما نؤمن به وهو إقبال القلب أو إذعانه. فإن ظنَّ أحدهم أنه مريض وبقي على حاله أضحى في نهاية الأمر مريضاً، وإن ظنَّ في استمرار أنه وسيم، أنار الدنيا حوله وتهلَّ وجهه فرحاً. وهكذا، علينا أن نؤمن بالسعادة وإلاّ فهي لا تتحقّق أبداً. إنَّ مَنْ يؤمن بأنَّ أمراً ما هو حقيقي، إمّا أنه حقيقي وإما يُمسي حقيقةً في حدود التجربة والاختبار. هذه الحدود هي إيمان بما أو بمن هو مفارق لواقع الحال. ومن الثابت أن الأمر إذا تكرر أصبح جزءاً لا يتجزأ من إيماننا ولو تبين عبثاً فارغاً. فإذا درج الإنسان على القلق ظنَّ أن الطمأنينة مجرد كمين.

أجللتُ أحد كبارنا لإغداقه على المعوزين من ماله الشخصي(!).
 وقد عزَّزَ هذا العطاء إيمانه فضلاً عن أنَّه عبَّرَ عنه...
 لو تركزت هذه المكرمة عند غيره لما عاد الوطن وطن
 الهروب والجريمة والانتحار. ينتهكنا الحقد وسواه لأننا تربينا
 على الحقد وما إليه. يمضي موت شعوبنا غير المتماسكة غاشماً
 والسياسات ارتهانية مغرضة تافهة كوجوه أصحابها.
 اختلط الدمع بالدمع وتمازجت الدماء بالدماء، فمتى تفيض
 النعمة من تجاربنا المشتركة؟ غدونا عديمين بلا فلسفة ولا
 آفاق.

للعدمية في بلاد النَّاس أبعاد. أمّا في بلادنا فهي جهل وتجاهل
 وتجهيل. يكاد يموت الإنسان فينا ومعه شعلة الروح ونقاوة
 القلب. متى نعود من أوهامنا إلى إيماننا فنخرج من الواقع
 الظاهر شطراً هويّة واحدة وحرارة حبّ لاهية تجمعنا؟

الحماسة والمعرفة!

نتلمّس العلم في الطبيعة والكتب. والعلم في العقل يستحيل معرفة. تفعيل المعرفة يشير إلى ثقافة ما. والعبريّة تتجاوز الثقافة العاديّة ليلبغ صاحبها شاهقات النبوغ والإبداع.

للحماسة وقع اكبر من المعرفة. المعرفة قوّة ولكنّ الحماسة هي التي تطلقها في صميمنا. بالحماسة نحصل على المعرفة، وبسبب قلة الحماسة نكاد نخسر المعرفة. وإنّي أؤثّر مغالط الحماسة على لامبالاة الحكمة.

الجهل نقيض المعرفة. الجاهل لا يعرف. إذا جهل أنّه يجهل عاش في عالمه الضيق، وإنّ هو لم يجهل يكون على قسط من الثقافة. قد يُتقن بعض "كبارنا" الصغار تجاهل العارف فيقعون في الخبث والرياء. أمّا التجهيل فله أربابه من رجال نفوذ ومارقين من الدين وتجار ومستشارين مُغرّضين...

حاجتنا الماسّة هي، إلى نظام يفرضه رجال أمن في حزم وحسم بلا تمييز أو تفرقة. نحتاج أيضًا إلى ثورة روحية - ثقافية - تربوية -. ذلك أنّ الزهور التي نتعهدها بعنايتنا تعيش وتزدهر وإلا فلا!

غادرتُ ذات مرّة الوطن إلى حين، وقلبي تنتابه اللواعج على مألوف العادة. وكنتُ دعوتُ طلابي الجامعيين وأبناء حارة المرجان في جبيل إلى المطالعة الهادفة تعزيزًا لثقافتهم. أضرمتُ نار حماسهم شطرَ زيارة المريض ونصرة القريب واحترام الأهلين واعتبار الفلاحين ومحبة الفقير. دعوتهم إلى إتمام واجباتهم كلّها وتهيئة آخرتهم التي رجوتها متأخرة. فالحماسة، كما أسلفتُ، تتقدّم على المعرفة وقد أطلق أهل الغرب عليها تسمية مشتقة من عبارة "إلى الله" اليونانية. ليست الحماسة وقفًا على دين أو طائفة، خصوصًا أننا كلنا اليوم مَسلوبو ديناميّة تبينّت تدافع خلايا غير حميدة.

يكاد الجهل ينهك حماستنا التي ليست سوى مدى بارئ الأكوان على هذه الفانية. ميثاقنا معه يبدأ بميثاقنا مع الطبيعة ومع كلّ نفس حيّة وكلّ حقيقة.

العِيشُ لِلآخر!

مَنْ حظي بنعمة الذكاء، فليخشَ أَنْ يُحكَمَ عليه حكمًا أقسى إنْ هو تبينَ مُتْهاونًا.

كلُّ إمريٍّ يحتاج إلى مؤازرة من الآخرين. وما دام السواد الأعظم من الناس ليسوا مسؤولين عن مصلحة كلِّ منهم فلا قائمة لعدالة اجتماعية بينهم. الشعوب المظلومة لا تحرر نفسها ما لم تمتلك القوى الضرورية لذلك. والواقع أنَّ الطبيعة البشرية تتماusk وتتكامل لتسير العالم.

البخيل في قوم لا يسعى وراء مصلحته الشخصية بقدر ما يتجاهل مصلحة الآخرين. إنَّه فريسة أمراض الأنا من أنانية ومركزية أنا وأناوية. الإنسان لا يستطيع أن يعيش لنفسه فتمَّة آلاف من الخلايا تربطه بأبناء جلدته. وبقدر ما لا يحقُّ له أن يستثمر السعادة التي لم يسعَ إليها، لا يحقُّ له أن يستثمر الثروات من غير أن يشقى في سبيلها أسوة بالآخرين، ما لم يشأ أن يُعتبر ميتاً في نظرهم، والإنسان المتفوق على ذاته حزام أمانه جدُّ قصير.

يُنعم الدهر على بعض ناسنا إنعامات جائرة في معظم الأحيان فيقطفون كلَّ القطاف من الثمار ويأكلون منها بعض الأكل ويرمون أكثره للكلاب والهررة في حين أنَّ الفقراء لم يخرجوا بعد من خطابة أسيادهم أو القيمين عليهم. يتغنَّون حتى الساعة بالمقتنيات والمال الحرام والمشكلة رابضة في تلوث أذهانهم. ولكن، كيف ترانا نحافظ على وجهنا الروحي وحتى الثقافي التعددي على سطحيتِّه، في حين أنَّ كلَّ جماعة منا مرتَهنة

بالخارج؟ يتفاهم خطر المستفيدين من جمودنا وتقهقرنا قبل أنْ يستفيدوا من ثرواتنا البريَّة أو البحريَّة. إنَّها السمكة الكبيرة تلتهم السمكة الصغيرة.

لسلوى في كلِّ ضحى بلوى وفي كلِّ نادٍ نجوى وفي كلِّ مساء شكوى وإنْ هي لم تخلُ من التقوى... لقد طال تقاعسها وتقاعس مثيلاتها. فَلتُقدِّم قبل الرجال، ما دام ربع رجالنا باتوا يؤيِّدون المساواة!

في الخوف!

المخاوف تتنامى فينا، وشأنها، إذا أردنا، أن تعلَّما. الحبُّ يلدنا ثمَّ يولد معنا والخوفُ هو ما نتعلَّمه وقد نتعلَّم منه. يخاف النَّاس عموماً ظاهرتين: الضوضاء الفجائية والهبوط المدوِّي. خبرتهما منذ نعومة أظفاري خلال أحلامي التي اختلفت باختلاف تماسكها ومنطقيَّتها. ولكنَّها بدت عموماً خالية من المعنى والمعقوليَّة... أمّا سائر المخاوف فأرى أنْ ننعَم النظر في مضامينها للتعلَّم منها.

الخوف الذي لا مبرر له في حالة الأمراض والمحن الوهميّة، هو مجرد عادات سيّئة. بفضل تهوية ما وإضاءة ما ملائمتين للذهن السوي، من الممكن أن ننمّي في نفوسنا الاتزان والشجاعة الحقّة. والواقع أن لا شيء في الحياة يستحقّ الخوف فعلاً. علينا أن نكنّه حيثيّاته ليس إلّا، أن نبدأ بتعليم أنفسنا وليس بالتخوّف: أكان تخوّفاً على النفس من مرض وهمي أم تخوّفاً من خطر ممكن كأنّ نتخوّف من تعرّض الوطن لهجوم وشيك. شأن كلّ هذا أن يعزّز أسباب الكذب والتكاذب لدى صغار القوم وكبارهم على السواء. وكم دكّ الكذب عروشاً أو كاد. السيطرة على الخوف هي الواجب الأوّل في مسيرة الإنسان السوي الذي لا يخشى العواصف الشديدة لأنّه تعلّم كيف يقود سفينته.

معالجة أسباب الخوف بالتخوّف مجلبة لعيوب لا نلقاها في الحيوان. ملاعبة الخوف بالتلاشي أمامه، تنمّي اختلاجاتنا اللاواعية. من يعيش في الخوف يخسر كلّ الفضائل البشريّة. تُهتِك الشجاعة في نفق طويل وتتبخّر بسمات الأطفال. فمتى نهتِك حجب الظلام والظلم؟ متى ينهي ذوو النفوذ مأساة خوف تملّكهم صغاراً فينعم الله عليهم بالقدرة "الرجوليّة" على توبة نصوح؟

زمنُ الخوف!

الحصان يمقت الجملَ، الفيل الضخم يخشى الفأر؛
ويقال إنَّ ملك الغابة الذي يرفض أنْ يولي أشدَّ الحيوانات
توحشاً ظهره، يرتعد عند صياح الديك.
النَّاس يخافون الذئبَ وإنْ في ثياب حمل، والمحاصيل الزراعيَّة
تخاف العاصفة والأشجار تخاف الرياح...
نكاد كلُّنا نختنق من جرأء شيء ما، وذاك الذي يدَّعي أنَّه يفلت
من هذا الواقع يكذب، وكلِّما كرَّر كذبه دنا أكثر من التصديق
البديهي الذي لا يتطأَّب كبيرَ تفكير.
كلُّ البشر يخافون في حياتهم. والجبان بينهم هو الذي يدع خوفه
يتغلَّب على شعوره بالواجب. ذلك أنَّ الواجب هو جوهر
الرجولة بل الكرامة الإنسانيَّة. وحده من خدع نفسه يطالب
بالتحرُّر الكلِّي من الخوف. ومن الطبيعي أنْ يستيقظ المرء كلَّ
يوم وهو على جانب من الخوف.

لا بدَّ، في أيَّامنا بالذات، أنْ تقع تحت نير الخوف، خصوصاً في
بلادنا حيث نتسقط ليل نهار الأخبار شظايا مؤلمة من خنادق
إعلاميَّة وسياسيَّة وافرة لا ترحم. الشرفاء العقلاء يعيشون في

هلع كبير. ذلك أننا بلغنا المتاهة الكبرى بعيداً عن مواعد الخير. نعيش في ضياع بلا بوصلة ولا مرجعية ولا من يحزنون. العصبية والارتهان لا يقضي عليهما سوى العقل والحياة الروحية والاحتضان المتبادل الذي ينطوي على اعتراف بحق الآخرين في الاختلاف بعيداً عن كل خلاف. هل نقبل أن يظل وطننا مجرد وادٍ للدموع ولا من يندم على أية فعلة شنعاء من هنا ومن هناك؟ ألا ببس "المسؤولون" وببس مصير الفاسدين منهم!

الإيمان أقوى من الخوف!

أمور كثيرة تخيفنا في العالم، وثمة أمور أوفر، في إيماننا، تجعلنا لا نخاف. الإيمان الراسخ يلغي الخوف. يطرُق الخوف الباب فيجيب الإيمان، في حين أن المكان فراغ! الخوف يزج بك في سجن فيما الإيمان يحررك. الخوف يصيبك بالشلل فيما الإيمان يضرّم فيك الشجاعة. الخوف يصيبك بعلّة والإيمان يشفيك من علل. الخوف يجعلك بلا كبير جدوى فيما الإيمان يجعلك مؤهلاً تأهياً عالياً للاضطلاع بأسمى الأفعال.

الخوف إيمان بأن لا حلَّ في الآفاق. إنه فقدان الإيمان. أمَّا الذين
عمرت قلوبهم بالإيمان فيرون أنَّ كلَّ ما وُجد إنما هو من صنع
بارئ الأكوان.

لكلِّ كائن بشري غاية يتَّجه إليها، وهي هدف قواه وأفعاله. وهو
لا يتَّجه إلى غايته بمحركٍ خارجي بل بقوةٍ داخليةٍ تحرَّكه إلى
أفعاله. إنها الإرادة. الإنسان يدرك الكليات بعقله والجزئيات
بحواسه. هذا من حيث المبدأ.

لذا، ترتَّب عليه أن تكون فيه إرادة عقلية تدفعه إلى الخير
الكلِّي، وإرادة حسيَّة تحمله على استحصال الخير الجزئي. لا
تكون الإرادة إرادة فعلية إذا لم تسعَ لفعل الخير، لأنَّ ما من
شرير باختياره. إلا أنَّ الإرادة التي ليست قوةً عمياء بل تركيباً
لقوى قائمة، قد تطلق عناصر فيها من عقالها في أجواء الخوف
و/أو الإيمان حتى لدى أولئك الذين انطفأت فيهم كل الأنوار
المُحيية. ثمَّة خطران: أن ننبد العقل أو أن نُعقِلَ كلَّ شيء.
فالمبادرة لكلِّ منَّا في ضوء العقل المروَّحَن، علماً بأنَّ الله أدرى
بصنائه.

مع الله؟!

زعم أفرقاء من النافذين، على مرّ العصور، أن الله أو المطلق وحده جدير بالحبّ والعبادة، وشاءوا أن يكونوا، هم أيضاً (!)، موضوع حبّ ناسهم وعبادتهم، فجهلوا أو تجاهلوا ما فيهم وفي ناسهم من فساد. لئن شعر الفريق الأول فعلاً بأنهم مُقعمون بالشعور بأنهم يحبّون الله ويعبدونه ووجدوا في ذلك سعادتهم القصوى، فنعمّ الصلاح صلاحهم! ولكن، إذا وجدَ هذا الفريق أنه أدعى إلى الكراهية وأن ميله يقتصر على أن يتربّع أعضاؤه في تقدير النَّاس لهم وأنّ كمالهم الأوحد عبارة عن استدراج النَّاس حتى الاغتصاب، إلى أن يلقوا السعادة في حبّ النَّاس لهم وليس العكس، فإنّي أقول أنّ في الأمر ما فيه من بشاعة لا مثيل لها! ربّما عرفوا الله أحياناً في عمق أعماقهم ولكنّ رغباتهم اقتصرت على وقوف النَّاس عندهم وحسب من غير أن يحبّ النَّاس الله بالضرورة لأنّ أسيادهم هم وكلاؤه على الأرض.

هل ما زال الأمر على هذا المنوال فبقي العالم يبرز أبشع الإرهاب والحروب؟ ألا نشهد تنامي الركون إلى تقرير الإنسان مصيره ونمط حياته كما يراه هو في هدي عقله ليس إلا؟ وهل

يكفي أنْ نعود حصرًا إلى ما يمليه العقل في حين أنْ النافذين ما زالوا يعوّلون عليه ليبتدعوا جرثومة العدوان هنا وهناك وهنالك؟

الغبطة في الله شيء والركون الحصري إليه إرضاء لشهوات خاصة تحت ظاهر اللجوء إلى العقل أيضًا (!) شيء آخر. إنَّ العقل غير المروّحَن شأنه أنْ يقود صاحبه إلى أسوأ الجرائم فيمضي يشيّد عليه أعتى مظاهر الاستكبار. الدين لا يقوم في المعتقد وحسب وإنما أيضًا في استعداد القلب وحسن الإرادة.

سلام النفس أولًا!

أنت السلام ومنك السلام!
كلُّ منّا يبحث عن سلامه الداخلي.

ما مصدر السلام هذا؟

خلف الطمأنينة ألوان من التعاسة، والجحيم مرصوف بالنيّات الحسنة. علينا أنْ ننظّم أنفسنا ونحدّد من رغباتنا ونعيش في محبة ونخضع للقوانين ونتوكّل على الله. هكذا نتطلّع إلى السماء. وبهذه المبادئ الأولى نبني الأوطان.

القاعدة الأولى إذاً هي المحافظة على قلب هادئ ثمَّ النظر إلى الأشياء وجهاً لوجه وإدراكها كما هي. هذا يستلزم وقتاً ومحبّةً ودعمًا. يستلزم رضى، لأنَّ سلام النفس هو ذلك الوضع الذهني حيث نقبل الأسوأ. ولبلوغه نرتضي تجاوزاً يناقض السلام.

عندما نعجز عن إيجاد الطمأنينة في ذواتنا، لا جدوى من تفصيلها في موضع آخر. المسألة مسألة كينونة لا ملكيّة. فإِنا والعُثُّ بحياتنا، وعلينا احترام الذات أولاً ثمَّ احترام الآخر فنلقى خيراً. وتبّاً لكل بطولة واستكبار واستصغار... لأنّها كلّها بعيدة عن السلام الداخلي، تسعى لتأمين السلم (الخارجي) وتالياً مكانة ما هي أشبه بسكرة المُهلوسين بالأساطير والعاجزين عن تحقيق السلام (الداخلي). نحن هنا أمام خيار جوهري يَتَمَظَّرُ في وجود كلِّ منا: أنْ نكون بشراً ذوي حياة أو نكون مواتاً.

تحقيق السلام الداخلي محكُّ صدقنا على هذه الفانية. لنسعَ إليه فلا نعود طوائف كافرة بالله دائنة به لفظاً وننعتق فعلاً من مساحيق العهر والاستلاب! الكلام في المُطلقات وحده يسحر الجماهير لأنّه هين، على هلهلته المتمادية في هذه الأيام. يستثير انفعالاتهم السهلة والسريعة ولا يكلف تأطيراً تاريخياً ولا يقيم وزناً للفكر والحياة. على المسؤولين الجدد (?) أنْ يبنوا سلاماً كمدماكٍ لوطننا في هذا الزمان الرديء، يجعل عمليّة الخلق ممكنةً فعلاً.

في التماسك!

عدم التماسك هو أكثر ما يمسك بالمرء في معطوبية وجوده وما من شيء ثابت مثل عدم الثبات. هل التماسك التام يماشي غير ما يثير الاستغراب والتساؤل؟ العالم سويٌّ إلى حدٍّ بعيدٍ وليس عليه أن يكون إلا على جانب من اللاتماسك المحيي. إنه مسرح تغيرات وثباته في طبيعته هو عدم تماسكه.

التماسك هو الملاذ الأخير لدى عادم المخيلة. أمّا التماسك النسبيُّ لدى الحذرين والحكماء، فهو يعني التناغم والأحوال وليس انتهاج السبيل نفسه على الدوام بتأثير تغير الأحوال. التماسك الأول يقتضي أن أكون جاهلاً اليوم مثلما كنت لسنة خلت. إنه نقيض الطبيعة والحياة. والشعب الوحيد المتماسك تماماً هو شعب ميت. وهناك من في ودّهم أن يوهمونا بأنّ البقاء في حفرة الرتابة هو التماسك بعينه وأنه فضيلة الانصهار الوطني - والانصهار لا يصلح فعلاً إلا للمعادن. يوهمون قلوبنا وعقولنا عبر براعة الألفاظ ربّما، بأنّ الخروج على الانصهار الوطني عيب مريب، في حين أن الإفراط في التماسك سيئٌ للعقل والجسد على السواء.

الدولة الواحدة المتماسكة - وليس الممسوكة - ! بالحد الأدنى، هي أضعف الإيمان ونتيجة وجدان ومحبة. ولكنها في شزيمة وطننا الصغير في حجمه والكبير في أحلامه واستيهاماته، لا تُبنى على السلبيات والبغض وتراشق الاتهامات. فإلى شيء من التنسك والحبّ والمعرفة البيضاء ندعو شعبنا ليحيا الجميع حياة جدية. لنحتذ بكبار المفكرين وبجميل أمثالنا الشعبية نتجلّ أمّة جديدة جالسة على الشمس، تحييها الأمم أجمل تحية.

في السعادة!

الحياة شروق شمس وغروب. سرّ النجاح فيها أن نحياها في تناغم وجود، أن نجعل كلّ موجة منها تغسل سويداء قلوبنا؛ أن نكفّ عن القلق ممّا يفوق إرادتنا. فالحقيقة لا تتغيّر تبعاً لقدرتنا على قبولها قبولاً انفعالياً مطلقاً.

تنبثق السعادة من صميم الإنسان وتكيّفه مع الحياة. والقناعة هي نتيجة قبول وتواضع وعدم ابتداع مسرحية هزلية أو مأساوية لأنفسنا.

لكلِّ شيء غرائبه، حتى الظلام والصمت. وحيثما نكون هناك نجد السعادة. أليست الجنة محفوفة بالعقبات والعراقيل؟ لو كانت السعادة حياة بلا قلق لكان المجانين أسعد النَّاس. فلنقبَل الحياة بلا قيد أو شرط لأنَّ السعادة لا حدود لها.

لا نجاح بلا كدَّ يمين وعرق جبين. أمّا إذا شاء أحدهم أن يخوض غمار السياسة فكرًا وممارسةً، فعليه أولاً أن يقدّر أثمان قراره، ويتقبَّل النقد البناء، على أن يجني ثمار هذا النقد. سرُّ سعادته في إقراره بقسوة عمله وفرح إسعاده النَّاس، لأنَّ السعادة المشتركة ازدياد في السعادة. الصيَّاد يعلم أن البحر كواسر أمواج وعواصف تتفاوت حجمًا وسيرورة. ولكنه لا يرى هذه المخاطر سببًا كافيًا للوقوف بمحاذاة الشاطئ شأن المتناثبين الذين يأخذون حمّام شمس.

في كلِّ حقبة تاريخية محاولة من قبل أناس ما، لإقامة نظام عالمي جديد. ليس الأمر بدعة جديدة وإنما هو نزعة أبدية تنتاب هذه الجماعات أو تلك عبر العصور. فهل يدرك أصحاب النفوذ في مجاهلنا، هذا الواقع، ويعلم المتناطحون على سلطة ليست سلطتهم، أنَّ المرء الذي لا يرضى بأسباب الحياة وشروطها يبيع نفسه قبل نفوس ناسيه في سوق النخاسة؟ فإذا أفلت شمس يومك بعد نهار طويل وحلَّ الدجى، لا تغفل عن إشعال شمس قلبك.

جمال الروح لا يقوم على تحليق أعتى الطيور الجارحة بقدر ما يقوم على إدراك نوعيّة التكيّف مع الواقع المعيش والحدّ من نزوات الذات في سبيل احترام الذات فاحترام الآخرين. شاء الغراب أن يُقلّد مشية الحمامة فانقطع نفسه إعياء وقَدَّ هويّته. وهذا مصير كلِّ مَنْ ترك معدنه فأغشى على بصره من شدّة بريقٍ ليسَ له!!

الروح تحيينا!

ترانا، في مستهلّ الألف الثالث، أمام ظاهرة لامبالاة بالقضايا الروحيّة!

ظنَّ النَّاسُ ذات يوم أنَّ العلم والتكنولوجيا قادران على حلِّ كلِّ مشاكلهم. والحال أنَّ هذين الميدانين المتفاعلين قد أحرزا تقدُّماً لافتاً. ولكنهما لم يفلحا في إيجاد حلٍّ للقلق البالغ في القلب البشري، وخصوصاً في ما هو من معنى الحياة والموت.

واعتقدَ البشر ذات يوم أنَّ مشكلاتهم هي نتيجة وضعهم السياسي والاقتصادي، وأنَّ ثورة ما وتغيير نظام قادران على توفير

السلام والاستقرار لهم. إنَّ عشرات السنوات من الشيوعيَّة والاضطهاد في الاتحاد السوفييتي والدول الشيوعيَّة الأخرى لم تخفَّف الشقاء البشري بل إنَّها قد ضاعفته.

إنَّ بعض التحذيرات التي تواجه الحياة الأخلاقيَّة عموماً تدعونا إلى العودة إلى الينابيع الروحيَّة لإعطاء الأسئلة التي نطرحها على أنفسنا أولاً، ثمَّ الأسئلة التي يطرحها الآخرون علينا، بدايةً أجوبة.

على الوزارات الراقدة أنْ تعمل لإيضاح الجوانب الروحيَّة والأخلاقيَّة وحتى الوطنيَّة التي تَعَلَّمَهَا بعضنا على وجهٍ ببغائيٍّ منذ نعومة أظفارهم، بلا إقصائيَّة أو تهافت ببغض. علينا بالتربية على الموضوعيَّة والروح النقديَّة البناءة معاً واحترام الذات قبل الآخر.

مَنْ تُراه يركنُ إلى هذه المعطيات الأوليَّة التي تسبق كلَّ مسعى إصلاحٍ حقيقيٍّ؟ أين الوزارات المختصَّة يا ترى؟!

اعتمدوا على أنفسكم!

الأحرى بنا أنْ نوثقَ على شجيرة شائكة من أنْ نصطحب إنساناً
لعيناً؛ أنْ نجسّدَ حالةَ نسبقِ الناسَ إليها بدلاً من أنْ نترسّمَ
خطاهم وراءَ أحوالٍ رتيبة. الحكيم لا يترصدُ الحياةَ مثلما تُعاشُ
وإنّما يبتدع الحياةَ بقواه الذاتيةِ أولاً. يتمنّى أنْ لا تستجدي المرأةُ
سلطةَ على الرجل بل أنْ تحقّقَ سيطرتها على ذاتها. والمسؤول
الفعلي الفاعل يحاول أنْ يعمل كالنحلة ويختفي كالبنفسجة خادماً
أهله. ولا يتطاوس على غير جدوى. هكذا تتشبّه الرعيّةُ
بالراعي الصالح في كلّ أحواله.

لسنّ الرشد ركنان: الانضباط الذاتي والاعتماد على النفس.
بالعدل والقسطاس يبلغ المرءُ بهما مرحلة النضج إذ يبلغ أوج
قدراته وتألّق شخصيّته.

أنْ نولد أحراراً، مصادفة؛ أنْ نحيا أحراراً، مسؤوليّة؛ أنْ نموت
أحراراً واجبٌ لا محيدَ عنه.

لا أحد يمكنه أنْ يدفعك كثيراً إلى الأمام وتفقد قبضتك على
زمام الأمور. ولكنّ في وسعك، بفضل قدميك، أنْ تتسلّق قمم
الجبال، وإنّ أفضل سبيل للّقيا يدِ العون ملتصقٌ بطرف الذراع.

عليك نفسك فتش عن معاييبها، واسع لأن تجدف قاربك لتدفعه إلى الأمام. لا تخش الأعاصير لأن قاربك سيمخر عباب البحر. زيد يرى ضوء النهار ببصره وعمرو ينير الدروب ببصيرته. وما من إنسان يستطيع تحرير سواه ما لم يحشد هذا الأخير قواه للتحرُّر. فالعيش بالوكالة محفوف بالمخاطر.

النَّاس نافذة زجاج متعدّد الألوان. يلمعون عند شروق الشمس، وعند حلول الظلام، يرتقي جمالهم إلى حقيقتهم، أي إلى كينونتهم الأعمق.

معدنك رأسمالك، فاغرف منه ترّ لك في كلّ مفخرة باعاً طويلاً. هذه هي القاعدة الذهبية بل النورانية. فهل ينبري المتمسكون بكراسي الجاه الأجوف، ليجسدوا كرجال حلّ وعقد، طلقاء المحيّا، هذا التوصيف لما نستطيعه، عبر هدأة إرادة صوّانية تعتمد أولاً على نفسها، أم سنظل نحلم؟!...

في سبيل سلامٍ مَفقود!

المقاومة المتعدّدة الأسباب والأهداف والغايات البعيدة، قد تتخذ أشكالاً متنوّعة بحسب الأزمنة والأمكنة وحتى الأفراد والجماعات، ولكنها تبقى عابرة موقّنة ولها شروط وحدود.

ليست المقاومة بالضرورة عسكرية، والأهمُّ منها طبعاً استتباب لا السلم فقط وإنما السلام الذي هو داخلي والحرية المسؤولة.

كيف نقود معركة السلام والحرية؟ السلام لا الحرب اسم من أسماء الله. فكيف نراه يتحقّق منذ الآن في وطن لا تصحُّ فيه المقاييس بل إنّ كينونته أو كيانه في الميزان؟ كيف لنا أن نضع أسس عقد جماعي يحدّد الانطلاقة الحقّة شطرَ دولة المؤسسات؟ الأساس ليس القانون أو الزعامات التقليدية والمستجدة أو المساومات والصفقات. ثمة حاجة ماسة، في صميم شعبنا، إلى شحنة روحية تتدفّق في النفوس والألباب وترسخ إيماناً وصدقاً وعطاءً.

تنطلق الحرية من تاريخ ما مجيد لدينا وحولنا، بشرط أن تساهم في إطار من المسؤولية المنزّهة، في توصيف الحاضر استشرافاً للمستقبل.

هذه الثورة البيضاء التي نصبو إليها منذ أمد بعيد، تستلزم احترام الذات أولاً ونكران الذات والتطلّع إلى الغيرية في إطار الوطن وحمل وزر الوحدة ولو ثقيلاً ريثما يأتي الخلاص بعيداً عن الارتعانات الخارجية والاستلاب الداخلي. والمطلوب هنا تجاوز الانتماءات الطائفية والمذهبية والعشائرية الانعزالية المنحى، والاتجاه شطرَ رؤية عضوية للوطن.

المطلوب لبنان واحد، موطن للجمال الذي يطهر قباحتنا

الداخلية أولاً فيمسي نظاماً تربوياً واجتماعياً وسياسياً مُسخرًا
لجمال كل ذات وكل فئة في أبهى تجلياتهما.
تلاقينا، إن تركنا لأنفسنا وانكفأ المتآمرون القدامى والجدد،
تحتّمه آلامنا وإخفاقاتنا حتى الساعة. نعوّل على وزارات الثقافة
والتربية والبيئة والإعلام (حتى إشعار آخر!) لبناء فكر وطني
منعقد من أسباب الدهماوية والمخاتلة والخرافية التي ما برحت
تتملّق الشعب لتتويمه ثم تهيبجه... وهكذا ... إن تأليف كتاب
موحد للتاريخ الوطني من الأهمية بمكان في هذا السبيل.
طوبى لأنقياء القلوب وبسطاء العقول. النقاء والبساطة مدخلنا
إلى المجد الحقيقي الذي يقتضي لنا معاشة حقّة للعلم وللأخلاق
على السواء، بعيداً عن السمسرة السياسية والطائفية.
نبحث من أجل سلام مُرتجى، عن نجم في سماء الوطنية، وبدر
كامل في الحقوق والآداب والأخلاق، وشمس تنير غياهب
البؤس في دنيا العجزة والمرضى ومنهم من قد يستغرب سقمه!
نبحث عن سليل أرومة عريقة أولاً بالتقوى والفضل.
وليكن، عند الضرورة، رجلاً محدودب الظهر ضئيل الحجم
متغصّن المُحيّا...

بين الأسطورة والإيمان!

كيف نحدّد البشريّة؟ هذا التساؤل قديم قدم الإنسان، وهو ما يميّز الإنسان في أعمال فكره وهو سبب شقاق بين البشر. للإجابة عن هذه الإشكاليّة، يتوسّلون عموماً كلاً من التاريخ والديمغرافيا وعلم الوراثة.

هناك اختلاط بين البشر يُبعدنا عن استيهام نقاء بدائي. ولكنّ الاستيهامات الجماعيّة جزء لا يتجزأ من التاريخ. حقّقت حقول المعرفة المذكورة تقدماً كبيراً شطرَ الموضوعيّة والدقّة في البحث، ولكنّها لن تستطيع أبداً أنْ تفلت من ذاتيّة المؤرّخين والروح النسيقيّة المنهجية في الأيديولوجيات الحاكمة أو المحتلّة. لذا، ليس من السهل إفقاد الأساطير والخرافات مصداقيّتها، خصوصاً عندما نتناول أشخاصاً يخلبون الألباب أو أحداثاً تكتنفها ألغازٌ تحرّك مخيلة الرعايا الخسبة. أحياناً، يبتدعون حقائق رسميّة ليستروا حقائق أخرى مزعجة وغير مشرّقة ويتجنّبوا إثارة خلافات عقيمة. الأسطورة أداة فعّالة. فحيث يتطلّب العقل وقتاً وانتباهاً ومنهجيةً وبحثاً متأنّياً، لا تكاد الأسطورة تحتاج إلى شيء، فهي ترتبط بالمخيّلة وتؤثّر في

الحساسيَّة، تجمل أكاذيب متنقِّلة في بساطة وفاعليَّة. إنَّها الوسيط المثالي لإشاعة الإيديولوجيَّات التي يسعون لإنشائها، والسلاح المخيف في أيدي الغوغائيين أو الانعزاليين المُتفَوِّقين.

ثمة عيوب قوميَّة، جماعيَّة، وخصال حميدة، في كلِّ أمَّة وكلِّ مجتمع. الله عندنا مثلاً من باب تحصيل الحاصل حتى في تعابير المُلحدين. ولناسٍ كثر "مَوْنَة" على الله ويعتبرون أنَّ كلَّ شيء يزوب في رحمته، وأن لا اعتبار لديه تعالى لما نقترفه من خطايا "ضروريَّة" لتسيير حياتنا اليوميَّة لاحتسابنا أنَّ الحياة - وحتى الموت! - لا يُمكن تدبيرها بتقوى حادَّة . وثمة من ذهب، عكس ذلك ربَّما - إلى الاستغناء عن إعمال العقل والرويَّة وحتى عن اللجوء إلى شاهقات الروح وعوامل التسامح والمحبة لتبرير عداء ما. الكذب الذي هو أساس الموبقات، لا يبدو مزعجاً لأصحابه. يقولون: أليس الله يريد هناعنا؟

شأن بعض الأساطير أنَّ تلام شمل أمَّة ما أو مجتمع ما، من الوجهة الاجتماعيَّة ومن باب التعميم أو الترجيح، كأن نقول بأنَّ الإنكليز عموماً هادئون بسبب من تقليد أو تربية، أو أنَّ نقول إنَّ شعباً إفريقيّاً ما كسول أو انفعالي بسبب من مناخ أو ضعف في صقْله التاريخي. قال شاعر يوناني قديم: "كلُّ كريتي كذاب" ليس لأنَّ الجزيرة خلَّت من الصادقين، ولكنَّ لأنَّ تصرُّف الأكثرين هو في هذا المنحى. ولكنَّ الإيمان والمعتقدات شيء، والأساطير،

في ذاتها، شيء آخر. للانبساط، في العربيّة، مدلولان: السرور والامتداد. في الحالة الأولى نفرح ونسعد ههنا، ولكنّ الانبساط أو الانشراح هو أيضًا وعلى الخصوص انشراح الذات والآخر واتّساع حريتهما معًا ليكونا أمام آفاق اللامتناهي التي لا تُحدّ. فهل لنا أن نميّز بين الأسطورة والإيمان؟

الحاجة إلى جسر عبور!

لمّا كان الإنسان قد جُبِلَ من تراب، فوطني التعنّدي جدًّا، على رقعته الصغيرة، هو العالم بأسره، وكلُّ البشر إخوتي...
ليت مواطنينا يتبنّون جميعًا هذا المبدأ المثالي!
لكي نتمكّن من تشييد جسور تلاقٍ متينة، ينبغي لنا أن نجتمع صفّتي النهر وأن ننتمي إليهما في شيء من التساوي. فضلًا عن ذلك - وهذا ما ينطوي على أعلى درجة من الصعوبة - هناك رسالة لسفر العبور ذاك التي تتيح لكلّ معنيٍّ أو غير معنيٍّ أن يعبره للانتقال إلى الجهة الثانية وليس الأمر مُريحًا. في فنّ الصياغة نحتاج أحيانًا إلى تزويد المعادن للحصول على عيار

نريده من الذهب، والوسيلة هي النار. أمّا المجتمعات فبعضها أقرب إلى الانصهار - الذي ليس انصهاراً بحصر المعنى. وبعض فيه تمايز أشدّ بسبب من لون البشرة أو الجمال أو التاريخ أو اللغة.

الفروق طبيعِيَّة شرعيَّة تكاملِيَّة ما لم تبلغ حدَّ التنافر. التعدُّ مصدر جمال وإبداع وإعمال فكر وإرادة. أمّا من الوجهة الدينيَّة فالتسامح والمحبة هما جسر العبور إلى مزيد من التضامن والتناغم والازدهار. كلُّ الشعوب عرفت الحرب الدينيَّة، راقدة يركن إليها أمراء الحروب أحياناً كثيرة لأسباب غير دينيَّة. العنف والإرهاب يربضان أبداً في طيَّات الدين الذي يتأجَّج في الطهر أو في البغضاء.

لا يستقيم عيشنا الذي هو سفر عبور إلى الخلاص على أساس إيمان مشترك، وبأولى حجة على أساس دين واحد! ننزعزل عن إيمان الآخر أو دينه أحياناً ولا ننزعزل عن الآخر بنفسه.

جلبة الثوار!

الجلبة من أدهى آفات عصرنا شرقاً وغرباً مع فروق قليلة. تدوِّي صيحات الغضب والعنف كأمواج البحر المتلاطمة في

عزَّ الشَّاء. يُحدث "الثَّوار" عندنا ضجيجًا تعلو فيه أصواتهم وتختلط. زمجرة من هنا وهدير من هناك وتضارب من هنالك حتى في قاعات الاجتماعات، ما يتسبَّب، فضلاً عن ضجيج السيَّارات وأبواقها و"المراققين" بضغط نفسي يصيب حتى مُسبِّبيه.

الثورات الحقيقيَّة لم يعرفها العرب لأنهم قلَّما تَفَلَّسُوا حقًّا. وهناك دعوات زائفة أو شخصيَّة، ولكأنَّا نحاول ملء فراغنا القاتل المهيمن على نفوسنا بوسائل لا فائدة تُرجى منها، تُوَازرها التَّفَرُّة وسائر التَّقنيَّات في تبيان عروض كثيرًا ما تُفضي إلى تعميق هوة الفراغ. فضلاً عمَّا تُحدثه الموسيقى الصاخبة التي تزيِّدنا دوارًا، وتسليات سطحيَّة نافلة تُعْمِن في تشتيِّتنا وبلبله أفكارنا.

الإخلاء إلى الصمت المدوِّي وتاليًا همس الضمير الخافت، وكذلك الأنشطة الهادئة الهادية، كَحَمَل الشموع والاحتفاظ برؤية للعالم نيِّرة وتقدير للأمور سديد، شأنها كلُّها أن تُداوي آلامنا وتستنهض الهمَّ بعد أن تكون قد حرَّكت الضمائر الراقدة. وليت النافذين يعزفون عمَّا يسكرهم ويوهمهم بمجد باطل!

هُويَّة الأبطال!

الأبطال فئة من البشريَّة أنعم عليهم الله من العلاء بمواهب طبيعيَّة، أضافوا إليها مزايا اكتسابيَّة جعلتهم يفوقون أهل عصرهم في مزاولة أعمالهم. فازدانوا من البدن بأقواه وأكمله، ومن النفس بأبهاها، ومن الشعور بأدقّه وأرقّه، ومن العقل بأفضاه وأثقبه، ومن الإرادة بأحكمها وأحزمها. فكانوا ولا يزالون في كل عصر "آية الله في خلقه". وذلك بإحاطتهم علماً بأغوص الأمور وأبعدها غوراً، ما عجزت العامة عن نيّله، فتمكّنوا من نقل الإلفة من حال سيئ إلى حال صالح، ومن حال حسن إلى حال أحسن. فجاراهم في ذلك السبيل قومهم. وانقادوا إليهم عن رضى وارتياح، لما توسّموا فيهم من الكفاية لتحقيق ما كانوا هم يدركونه إدراكاً ناقصاً ومبهماً، ويسعون في اقتنائه بإرادة واهنة.

وعليه يكون أبطال البشريَّة أيمّة في الأمة، وقادة عظيمي النفوذ في الإلفة، لا متحكّمين فيها تحكّم المسيطرين المستبدّين، وقى الله عباده شرّاً أمثال هؤلاء الطغاة، وأكثر للأوطان من الخدمة آمنهم، ومن الزعماء أقدرهم وأنشطهم، ومن النوابغ أذكاهم وأداههم، ومن الأبطال أشجعهم وأبسلهم.

فمتى ننعنق في مجتمعاتنا من عبث العابثين ولو في حقل واحد ممّا أشرنا إليه؟ متى تنتهي مسرحيتنا السياسيّة الهزليّة أو المأساويّة المتفاقمة التي أين منها مسرحيّات رائد المسرح العبثي صموئيل بيكيت؟

استفتوا، يا جماعة الخير، قوانين الأرض وشرائع السماء تتركوا معنى الحرّيّة المسؤولة، وكذلك كون الأديان والنواميس التي تتشدّقون بها لا تناهض تلك الحرّيّة ولا تدعو إلى التفلّت من قيدها. أمّا العقلانيّة المروّحنة التي ينبغي التمشّي عليها فتستمدّ مبادئها من طبيعة نفس الإنسان وتتّصف بالتنزّه عن المادّة والامتداد شطراً الأشياء العامّة أو غير المحدودة. أقدموا أيها السادة للحفاظ على كيان الدولة قبل أن نخسر جميعاً الرهان عليها وعلى وجودنا ووجودكم على السواء.

مع السّلاح ؟

يزعم أناسٌ أنّ السّلاح زينة الرجال وأنّه، إذا شئتَ قتلَ أرنبٍ إحْمِلْ سِلَاحًا يردي نمرًا، وإنَّ مَنْ يُرزَق مولودًا ذكرًا يدعون له بالبركة والصّلاح في الدّنيا ويفرحون كمن أهدى بندقيةً يدافع

بها عن المنزل الأبوي وهو يحمل اسم الجدّ من جهة أبيه... وفي هذا ما فيه من ذكوريّة بغیضة وعدوانيّة مقبّية... أليس التعليم أقوى سلاح لتغيير العالم؟ أليس الفن أداة أو سلاحاً سحريّاً في يد الجماعة الإنسانيّة في صراعها للبقاء؟...

رأى الإنكليز أنّ الأميركيّين قد يتوسّلون السّلاح للانتفاض عليهم فمنعوه عنهم بحجّة أنّهم يحولون دون الاقتتال في ما بينهم أو قتل الأطفال أنفسهم بالسّلاح الفردي.... ولمّا كانت الولايات المتّحدة الأميركيّة مترامية الأطراف، أمسى منطق الاكتفاء الذاتي اللامركزي يفضي إلى حمل الشعب للسّلاح دفاعاً عن أنفسهم ضمن شروط وقواعد معيّنة. هذه هي ردّة فعل الثوّار الأميركيّين لئلاً تقمع الحكومات الاتّحاديّة وسواها شعبها ويمسي حكمها دكتاتورياً. وهكذا لا يخالفون الدستور ولا تُقمع الحريّات، ويؤلّف حمل السّلاح وفراً من المال، ويقلّلون من وطأة أعمال المجرمين ويحافظون على أمن الدولة ضدّ أيّ مُعتدٍ أجنبي. هكذا ثار الأميركيّون على الظلم والإرهاب في عقر دارهم، وصرخوا في وجوه الجائرين صرخات عالية قويّة، وناضلوا في سبيل الحريّة والمحافظة على الكيان القومي وأوقدوا، ولو بقوانين تختلف من ولاية إلى ولاية، جذوة الحميّة في نفوس معظم شعبهم المتعدّد الأصول، وهم ما زالوا متحفّزين للوثوب على الطغاة المستبدين.

بحنثُ طويلاً في بلادنا عن بشر أفاذ هم نموذج النبوع الفيّاض الذي يزداد كلَّ يوم وفي كلِّ مجلس، علماً وحكمةً ومعرفةً، ويكون له الفكر أبهى من الشمس ويكون على إلهام وصدق حتى كأنَّه يوحي إليه... يجمع له الله حتى مَلاحة الوجه وحسن السمّت وجمال الطلعة وكمال الخلق وسعة الصدر وعلو الهمة وكبر النفس ودوام التفكير لا يترك لجسده راحةً واستجماماً. بحنث عنه وقلماً وجدته إلا في سيرة بعض النساك والشرفاء. أمّا في بلاد الناس، فتبعاً لفلسفتهم الذرائعيّة، تراهم، في أعلى مقاماتهم، يطوفون المدن والقرى والأرياف والسواحل ويجتمعون بالعلماء والمفكرين من أبناء أمّتهم، ويحثّونهم على جمع كلمتهم وشدّ عُرى وحدتهم. المسؤولون في الغرب الذي يمتُّ شطره أكثر فأكثر هم خير رسل مصلحين اجتماعيين سياسيين، يوقظون شعبهم - لا العكس - ويؤثّون للمجتمع أصدق الخدمات، ويحقّقون أمانيه الغالية وآماله العذاب. فمتى نرى بأمّ العين أولئك الرجال ولو دجّجوا شعبهم بالسّلاح؟

حَرْبٌ عَلَى حَرْبٍ!

لطالما أُمِّتُ بِقِرَائِي أَنْ يَحْيُوا حَيَاتِهِمْ فِي صَدَقٍ وَشَفَافِيَّةٍ، لِكِي يَشْهَدُوا لِكِرَامَتِهِمُ الْبَشَرِيَّةَ وَمُثُلَهَا الْعُلْيَا، لَطَالَمَا حَنَنْتُهُمْ عَلَى الْعَمَلِ قَوْلًا وَفِعْلًا عَلَى غَرَارٍ وَرَدَةٍ تَجْتَذِبُ بِلُونَهَا وَفَرَحَهَا وَسُكُونَهَا الْمَدْوِيَّ نِدَاءً. سَعَيْتُ لَأَنْ أَعَكْسَ صُورَةَ الْوَاصِرِيِّ السَّنِيَّةِ وَكِبَارِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَعِيشَ مَعْدَنَ تَقَافَتِي الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْأَعْمَاقِ الَّتِي لَا بَدْءَ مِنْ أَنْ تَأْخُذَ مِنَ الْعَالَمِ الْمُسْتَكْبِرِ كُلِّ مَأْخُذٍ رِيثْمًا تَضَعُ الْإِنْسَانِيَّةَ حُلُولًا مُرْضِيَةً لِمَشَاكِلِ جَمِيعِ الْبَشَرِ الْمَحْرُومِينَ وَالْمَظْلُومِينَ. نَوَّهْتُ دَوْمًا بِبَطُولَةِ أُنْبَانِنَا الْأَبْرِيَاءِ فِي فَالَسْطِينَ الْمُحْتَلَّةِ، وَأَشَدْتُ بِتَضَحِيَاتِهِمُ الَّتِي أَيْقَظَتْ بَعْضًا مِنَ الضَّمَائِرِ الْعَالَمِيَّةِ.

مِظَالِمُ إِسْرَائِيلَ تَرْفَعُ مِنْ نَسَبَةِ شِجَاعَةِ الْفَلَسْطِينِيِّ الشَّرِيفِ وَتَجْعَلُهُ يَعْزُضُ صَدْرَهُ لَهَا وَيَقَابِلُ أَفْوَاهَ بِنَادِقِهَا فِي أَسْوَأِ الْأَحْوَالِ بِالْحَجَارَةِ...

يُدَافِعُ أَهْلُنَا هُنَاكَ عَنْ رُبُوعٍ وُلِدَ فِيهَا الْوَاصِرِيُّ رَسُولَ الْمُحَبَّةِ وَالسَّلَامِ وَعَرَّجَ مِنْهَا النَّبِيُّ الْعَرَبِيُّ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ، بِأَنْشِطَةٍ هَادِئَةٍ هَادِيَةٍ حَضَارِيَّةٍ، هِيَ مُجَدِيَّةٌ تَنْشُرُ، وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ، الصَّدَاقَةَ وَالتَّفَاهُماً بَيْنَ الشُّعُوبِ الْمُتَنَافِرَةِ.

مَنْ خاف وجدانه، هو كالفلسطيني المقاوم أهوال الحياة وكؤوس الممات بلا كبير ضجيج. المقاومة رسالة لا حرفة. والرجل المسالم المجاهد في ميدان الحق والحرية كالجندي المناضل في ساحة الحرب، كل منهما يستحق الإكبار ويستأهل التكريم.

تكاثف ضمائر العالم المتصلة، وإن نادرة، لا تفرغ فيها. وهي تجمع على الوفاء لمبادئ الكرامة الإنسانية وروحانياتها، ضماناً لبقاء البشرية وازدهارها. المحبة الناشطة تشرع أمام أصحابها جميع الأبواب، والأجيال الصاعدة (فعلاً!) لا بدّ من أن تنعم طويلاً بما يخلقونه من رصيد ونفوذ يسهل مهامهم ومهام أنجالهم تحت كل سماء. إن كل عمل ننهض به عن حب لا بدّ من أن يلقى أصداء خير وحق وجمال.

بالمحبة العاقلة نغمر العالم!

- ١- العناية بالأجساد لا تلغي العناية بالأرواح.
- ٢- لا نحسب حساباً ضيقاً لأية حملة عدائية شعواء قد تُشنّ ضدّنا.

٣- لِنَمِضْ قَدَمًا، كُلُّ فِي حَقْلِهِ، فِي رِسَالَتِنَا الْإِثْرِيَّةِ وَإِنْ نَحْنُ تَعَثَّرْنَا فِيهَا.

٤- سِرُّ نَجَاحِ الْبَشَرِ فِي نَأْيِهِمْ عَنِ أَيِّ نَمَطٍ جَامِدٍ لَا بَدْءَ مِنْ أَنْ يَنْهَارَ ذَاتَ يَوْمٍ.

٥- النَّمُودَجُ الْإِنْسَانِي الْمُنَشُودُ يَلَاقِي هَوًى فِي قَلْبِ كُلِّ إِنْسَانٍ.

٦- إِنَّ امْرَأَةً مَا، وَإِنْ تَجَلَّى عَلَى دِينٍ مَا مَوْلَدًا وَمِمَارَسَاتٍ يَوْمِيَّةً، قَدْ يَكُونُ عَلَى جَهْلٍ مُطَبَّقٍ بِمُبَادئِهِ، وَهُوَ لَا يَنْهَضُ بِمَهَمَّاتِهِ الْأَسَاسِيَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالنَّوَايَا.

٧- حَاوَلْتُ، مَا اسْتَطَعْتُ، أَنْ أَضْعَ عَقْلِي فِي قَلْبِي أَوْ قَلْبِي فِي عَقْلِي. فَكُنْتُ لِنَفْسِي قَبْلَ الْآخَرِينَ مَرَشِدًا وَمُؤَاسِيًا وَطَبِيبًا وَتَشَعَّبَ نَشَاطِي تَحْتَ كُلِّ سَمَاءٍ.

٨- نَالْتُ نَوَائِبَ بِلَادِي قَبْلَ سَوَاهَا، مَنِي بَاكِرًا إِرْهَاقًا وَانْهِيَارًا، فَغَادَرْتُ الْبِلَادَ طَلَبًا لِلْعِلْمِ وَلِمَزِيدٍ مِنَ التَّقْنِيَّاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ النَّاجِعَةِ، وَلَكِنْ لِلْغَرْبِ أَيْضًا مُحْرُومِيهِ الَّذِينَ لَا يَعَانُونَ الْأَمْرَاضَ أَوْ يَرْتَوِنَ الْأَسْمَالَ وَلَا يَمُوتُونَ جَوْعًا، وَلَكِنَّهُمْ يَعَانُونَ قَلْقَ الْعِزْلَةِ وَلَوْ وَرَاءَ بَرِيقِ تَرْفٍ نَسَبِيٍّ وَأَضْوَاءِ الشَّاشَاتِ وَلَأَلَاتِهَا. هُنَاكَ التَّمْيِيزُ الْعَنْصَرِي.

٩- كَمْ كَانَتْ دَهْشَةُ أَهْلِي وَجِيرَانِي بِالْغَةِ عِنْدَمَا رَأَوْا أَنَّي بَتُّ غَائِبٍ رَدْحًا كَبِيرًا مِنَ الزَّمَنِ سَنَوِيًّا وَإِنَّمَا دَعْمًا لِإِقَامَتِي الدَّائِمَةِ فِي بِلَادِ الْعَمِّ سَامٍ. مُضِيْتُ كَمَا فِي التَّسْعِينَاتِ فِي جَامِعَةِ نَانْسِي

الفرنسيّة، أدرّس العربية في الولايات المتحدة وبات الله مجدّداً الوجه المركزي في عملي. وزوّدت على مألوف عاداتي الصحف مقالات مستفيضة عن جوهرودي الأميركي فاستأثرت، بلا حفلات ولا أوسمة، بقلوب القراء قبل عقولهم.

١٠- أمّا في مركزي في بوسطن، فقد أعلن أحد المستمعين إليّ في مداخلتي بأحد المؤتمرات: بقلبٍ مُقعمٍ فرحاً نعبّر لكم عن عظيم ابتهاجنا وشكرنا على جهودكم الدافقة إيثاراً والتي فاضت منكم على الحاضرين وطلابكم في المركز. أنشد الحضور بكلّ طاقات صدورهم أناشيد الشكر والتتويه حتى كادوا يطيحون بسقف مبنى المركز المرموق.

١١- في بلدة ميثون الوداعة بضواحي مدينة بوسطن، يعيش رهبان وأخوة متنسّكون عظةً الجبل عوضاً من التحدّث بها، ينشدون ليل نهار باللغة الإنكليزيّة وبشيء من العربيّة واليونانيّة، تراتيل يتخلّلها هتاف: هلوليا - آمين - يا رب ارحم!... نبذوا الطبقات الاجتماعيّة التي عمّت وتوارثت وتحاصصت في بلادهم وأرسوا عقيدتهم بل ممارساتهم على مزيج من التعاليم المسيحيّة والإنسانيّة العامّة. وقد اشتهر مركزهم المسيحي الجامع الشامل المانع ببسالة رجاله في ساحات العمل كما اشتهروا بعطفهم على الفقراء والغرباء والجياع. أعطيت بعضهم دروساً في اللغة العربيّة فأفاضوا عليّ

مزيدياً من كنوز عطفهم مساهمين إلى جانب وحيدي، في بعثي
من موت نفسي محتّم، ولأحوال بشعة زميمة في بلادي، إلى
حياة كريمة. أنشدتُ في رئيسهم الأب إبراهيم حدّاد المخلّصي
قائلاً:

صرحُ ميثونَ صرْحُ تقوى وإيمانٍ

عميقٍ... يديرُه الحدّادُ

إبراهيمٍ... زدهُ إلهي ازدهاراً

فوقَ نورٍ... ولتزهري الأمجادُ

(٢٠٢١/٩/٢٦)

١٢- عندما تغشى الجماهير طرقات مدينة الحرف جبيل، في
الصباح الباكر، تتدفقُ في الأجواء موجات حبٍّ وموانسة
وخلجات تحمل شيئاً من الأمل والتفاؤل. أرتشف القهوة في
مقهى "القدوم" وأتخيّل شرفاءنا العقلاء الطيّبين يتوجّهون إلى
بائسي المدينة اللإنسانية في العالم بقولهم: "نحن نحبكم، فلا
تخافونا". هذا ومن المقهى الذي أرتاده يوماً أراني أقول
للمتسولين في الشارع: "تعالوا إليّ فإنني لم أرفض يوماً متسولاً
فرداً". المقاهي وجلسات الأُنس تكاد تنسينا مآسينا التي قلّما
عرّفها النَّاس في بلاد النَّاس. أمّا في الحياة العادية فيكاد المرء
أن يتقيّاً قلبه من فرط أذى الآخرين.

يبدو أن الله الفائق الطيّب يلبي حاجات النَّاس حيث تدعو

الحاجة إليه وبالتدريج. لذا اعتاد أهل الشرق عمومًا المعجزات أكثر من الغربيين. فالمحتاجون إلى رعاية لدى أبناء الشرق لا يحيط بعددهم إحصاء. لذا، جاء عدد من الناس من شتى أرجاء العالم المتقدم ماديًا إلى بلاد الشرق وعاشوا مع أبنائه على الرغم من قسوة الأحوال ووعورة أسلوب العيش. وقد لقوا هم وبعض من أهالي الشرق عيشة تستلزم جرأة نادرة وتضحية بالغة. وقد وهب هؤلاء قلوبهم وعقولهم وتجاربهم لنموذج إلهي وجدوا فيه المثل الأعلى في البذل والإيثار. يبدو أنهم استمثموا من بارئ الأكوان قوة الوفاء له وللمحرومين فباتوا يكتشفون حضوره في كل مكان.

١٣- من ذا الذي يتبين أشدَّ هوسًا بالرفاه ووسائله، ابن الشرق أم ابن الغرب؟

خير الأمور الوسط، أمَّا الباقي فشطط. غير أنَّ ثمة مبعث دهشة وتأثر في رؤية ما يتميز به أناس من الفريقين من تواضع وبساطة فيشعُّون بهما في كلِّ مكان. وما إنَّ يتصل بهم المرء حتى يؤنس في صميمه فرحًا يستعصي على الوصف.

١٤- قد يغرق شريف عاقل في الغرب في أعمال فكره لحلِّ معضلة إنسانية ولا يفلح، وقد يُمعن شرقًا شريف عاقل في التأمل والصلاة ويحوز الإعجاب. هذا ما خبرته غير مرَّة في مراتب صباي بحريصا الكسروانية حيث نلت الأسرار وتسنى

لي التَّخَشُّعُ عند لحد والديّ، فزلازل بلادِي المتتالية لم تُطَحْ بمعالم "فاتيكان الشرق" كما دعوتها ذات يوم. وفي نظر "المستعربين" على زغل، ممَّن طغت على أذهانهم الماديَّة الجوفاء والتقليد الأعمى، تجلَّيتُ ولو أستاذًا لمئات رجال الدين، إنسانًا مجنونًا غريبَ الأطوار يسير على قدميه (!؟). وهذا الحكم لا يزعجني لأنَّني "مجنون" إكرامًا لمن بلغ به الجنون حدًّا فعل ما لا يُستطاع من أجلنا. دافعتُ وأمثالي عن كلِّ تقليد حسن، وإنَّني أقول لمن ينعي علينا مثلًا الكفاية ويصمُّون بالتفرُّج والثورة على اللغة، أنَّا حافظنا وأجدادنا على لغة قریش والقرآن الكريم وأحييناها وتجلَّينا لها أكبر المناصرين وأبرَّ الأبناء يوم تبين كثيرون يناصرون أعداء البلاد ويعضدون أعداء اللغة. وللأعاجم المستعربين فضل عظيم على اللغة العربيَّة والنهضة الأدبيَّة العلميَّة العربيَّة مدينةٌ لهم أولًا.

١٥- علَّمتني المقارنة بين الحياة في الشرق والحياة في الغرب، أنْ أحاول تجسيد جوهرودي على الوجه التالي:

أ- أنْ أزور السجين وإن هو سطا على متاعي؛

ب- أنْ أغيث مدمن المخدَّرات؛

ت- أنْ أساعد المشلول على السير؛

ث- أنْ أتكلَّم بالنيابة عن الأخرس؛

ج- أنْ أفقد الأعمى؛

- ح- أَنْ أَحْمِي كُلَّ ضَعِيفٍ أَوْ مَتَخَلِّفٍ؛
 خ- أَنْ أَنْصِتَ لِكُلِّ سَكِيرٍ؛
 د- أَنْ أَبْتَسِمَ لِكُلِّ مَتَسَوِّلٍ؛
 ذ- أَنْ أَعْطِفَ عَلَى كُلِّ مُنْزَوٍ؛
 ر- أَنْ أَكْسُوَ الْعَرِيَانَ؛
 ز- أَنْ آوِي الْمَشْرَدَّ؛
 س- أَنْ أَطْعِمَ الْجَائِعَ؛
 ش- أَنْ أَجْهَدَ فِي سَبِيلِ السَّلَامِ؛
 ص- أَنْ أَنْشُرَ كُلَّ أَسْبَابِ الْفَرْحِ؛
 ض- أَنْ أَعْلَنَ الْحَقِيقَةَ؛

بالتوفيق بين جوهر الأديان ووجودنا اليومي، تُرانا نلجأ حصرًا إلى ضميرنا الحيّ الذي لا لغة تستطيع التعبير عن حمله آلام البشر ولا أبجدية تتسع حروفًا لنقل صفات صاحبه ومآثره المزمّنة كلّها. هكذا نعيش كبارًا ونموت كبارًا، والتراب الذي يحتوي جسدنا يغدو عاجزًا عن احتواء أمثولاتنا الرائعة، وعن لمّا من قلوب آلاف الشرفاء العقلاء ولربّما سواهم أيضًا. هكذا نتواجد بعد غيابنا الظاهر في قلوب الأوفياء وعيونهم وذاكرتهم. هكذا ننزع من الموت معنى الخلود. لا نخرج من ألق الحياة إلى يباسها وعدميّتها. وتسمي أفعالنا ككرة الثلج التي تكبر في كلّ الاتجاهات لتلوّن ببياضها قلوب شعبنا بل الشعوب كافّة

ولو بعد حين، وتروي بقطرات رُضابها ترابنا المقدَّس الذي
عبث به العابثون فسادًا وإفسادًا.

المطلوب فكرٌ واحتِضان!

ما نطلبه اليوم أولاً، مفكِّرون متتوِّزون كلامهم جامع شامل
مانع، يُنطقون العقلَ بالأناشيد والفلسفة أسوةً بأجدادهم من أمثال
الخالد جبران والفيلسوف ميخائيل نعيمة... لكن، هل من رأي
لمن لا قرار له؟

ينبغي لأصحاب القرار أن يحتضنوا أدباءنا ومفكرينا لنلأ يبقوا
في حروف من ذهب في سجلِّ التاريخ والحضارات العالميَّة
ليس إلّا. على النافذين أقلُّه أن يُدرجوا كتابات أولئك الشرفاء
العقلاء في المناهج التعليميَّة والتربويَّة. إنَّ بعض العلماء
والمفكِّرين العرب استطاع الغرب في ما مضى الاستفادة من
نتاجهم الثرَّ بصفته مساهمة في بناء الصرح البشري النير. ولا
يُمكن أحداً أن يُنكر دور ابن رشد وسواه من العلماء والأطباء
والرياضيِّين في ترسيخ أسس الحضارة الغربيَّة.

إنَّ احتضان أصحاب الرأي والفكر النير، شأنه أن يُرسي أسس التطور الاجتماعي والسياسي الحقيقي. عندها لا تكون الانتفاضات والحركات مجرد تنفيس عما يفتقر إليه الشعب من بديهيات الحياة تنفيساً نفسياً.

هناك التربية المدنية والتربية الأخلاقية، وللتورات شروط كالبواعث المشتركة والمخططات الفلسفية والمنهجية الصلبة والأهداف الوطنية والإنسانية. التورات إذا فكرت فنهج فغايات. الحكام المستبثون يحولون دون قيام هذه التورات بإبقاء شعوبهم على فقرها، ويعملون نقيض مصالحها...

يقمعونهم، وعندما يحين وقت تلبية حاجاتهم، يدعون لأنفسهم الحق في خيانتهم. فالألم كذب أصحاب القرار، ونهب إرادة الحياة عند شعوبهم قبل نهب أموالهم. ولم لا يركنون إلى ضميرهم الحي والعمل بما يأمرهم به، ما يأمر عليهم ظالم ولا عدو! الكذب الذي هو ملحننا اليومي هو من أكبر العيوب في الغرب!

ولادة متجددة!

كلّ يوم ولادة جديدة، فلنغتنمها في عيشها بالعمق.
كلّ يوم نبحر عند طلوع الشمس فتتحرك سفننا إلى الأمام .
كلّ يوم، يبدأ يوم جديد تمامًا كما تفعل الطبيعة. إنّه من الأمور
الحسيّة التي تقوم بها.
كمّ سبقَ أنِ امتلأتُ سرورًا بأملٍ مجيء يومٍ جديدٍ وبإمكان
القيام بمحاولة جديدة وبداية إضافية، إلى جانب ربّما، انتظار
سحري في مكانٍ ما يتجاوز النهار.
يجب أنْ نتحلّى بالصبر بإزاء كلِّ شيءٍ وخصوصًا بإزاء
أنفسنا. فلا نفقد الشجاعة على الأخذ في اعتبار عيوبنا، بل
نسعى فورًا لمعالجتها وهكذا كلَّ يوم.
كلُّ يوم حياة مصغّرة، وكلُّ استيقاظ أو إشراقة صباحيّة ولادة
وجيزة، وكلُّ صباح جديد غيظ من شباب، وكلُّ قسط من
الراحة أو خلود إلى النوم شبه ممات.
أنْ نرى العالم متجدّدًا كلَّ صباح وكأنّه صباح أوّل يوم في
حياتنا وأنْ نجعل منه أفضل ما يكون لنا وكأنّه اليوم الأخير،
هما المنهاج اليومي لرغبة الإنسان الحقيقيّة. لذا، لا نقولنّ "هذا

صباح" ونرفضه كما رفضنا الأمس. فلننظرُ إليه، أوَّلَ وهلة، كأنَّه مولود جديد لا اسم له. والله عزَّ وعلا وقت لامتناهٍ لمنحنا عطاءاته. وهو يقسمُّها تعاقب صباحات جديدة ومع كلِّ صباح فكرة جديدة وإبداعات جديدة وتفعيل جديد.

فيا أيُّها الفاسدون والمُحتكرون، تداركوا كلَّ يوم أمركم واقلعوا عن نهمكم وجشعكم، واشملوا أخوانكم بالرفق والحنان. ارحموا الإنسانية في عزِّ أيَّامكم وجاهكم، لترحمكم يوم شقائكم، ويرحمكم التاريخ والله عزَّ وعلا وهو إله العدل والمحبة بامتنياز... ردُّوا إلى ضمائركم الحياة، يرجعُ إلى قلوبكم العطف والشعور، وتحرَّروا من عبوديَّة الطمع، وبشروا برسالة الإخاء والرحمة، وقوموا يومياً إلى العمل بضمير حيٍّ نزيه، واذكروا دوماً أنَّ الدَّهر يومان، يومٌ لكم ويومٌ عليكم.

مَكَانَةُ الْأَمَلِ!

من ميزات العبقريَّة أن يكون صاحبها مُقنعًا بالأمل طامحًا إلى العُلا. البائس الشقيُّ هو مَنْ فَقَدَ الأملَ وحتى دون ذلك. وقد قيل إنَّ كلبًا منهلاً أفضل من أسد ميّت.

في البدء نأمل الكثير ثمَّ لا نأمل بما فيه الكفاية. بلا أمل يعيش المرء نصف حياة. بالأمل يحلم ويفكّر ويعمل. يحتاج إلى ثلاثة لكي يسعد في هذا العالم: إنسان يحبُّه وشيء يفعله وآخر يأمله. إنَّ أُنْتَ انتزعتَ الأملَ من قلب امرئ جعلته وحشاً ضارياً. على أنه، بين كلِّ العلل التي يعانيتها البشر، وحده الأمل زهيد الثمن وأعدل العلاجات توزعاً بينهم.

إنَّ مَنْ نتوق ونصبو إليهم، بين الرجال والنساء، أناسٌ يزرعون الأمل في محيطهم القريب والبعيد، في حنان لا ينضب وإرادة لا تنتهي. إننا في حاجة إلى أولئك البشر المتوافرين في مجتمعنا لتأكيد أولويَّة العيش الواحد في مواجهة الغرائز الحيوانية الصَّرف التي تدفع الأجناس إلى التهام بعضها بعضاً الآخر.

نحتاج إلى مَنْ يصغي إلى نداء النَّاسِ المتقطَّع وإلى عويلهم المحزن، وينظر إلى جراح أحدثتها فيهم نصال الرزايا واليأس

المريب. نحتاج إلى من يسير بجوانب أكواخ الفقراء وبيوتهم ويسمع الأمهات يعللن أطفالهن تعليلاً، وينشدن لهم نغمات تنسيهم، ولو إلى حين، مضض الجوع ولو قليلاً، وتساعدنهم على النوم ولو بعض الوقت!

هل من مسؤول يحدّق إلى أولئك الأطفال وينصت إلى أناتهم الخافتة الموجهة، ليرى أنهم حُرّموا حتى الأمل، وسُلبوا لقمتهم وراحتهم وجُعّلوا هدفاً لسهام الموت المروع؟ هل من يحدّق إلى أمهاتهم البائسات ليُلَمّح الكآبة الخرساء مرتسمة على وجوههنّ الشاحبة المتظاهرة بالسكينة والاطمئنان، وينقل بصره إلى الآباء المساكين الذين يكدحون في سبيل القوت، والقوت بين أشدّاق ذئاب المجتمع الكاسرة.

بين الموت والحياة!

ينبغي للمرء ألاّ يخشى الموت! فلا يخافنّ أن تنتهي حياته بل ألاّ تبدأ البتّة. هناك أناسٌ يخشون الموت إلى حدٍّ أنهم لا ينطلقون إلى رحاب الحياة.

أسوأ المخاوف هو الخوف من الحياة. والحال أنَّ عددًا من النَّاس لا يُستهان به يتطلَّعون إلى الأمان والطمأنينة أكثر من تطلُّعهم إلى الفرص السانحة التي توفِّرها الحياة. يخشون الحياة أكثر ممَّا يخشون الموت.

الموت لا يرعبني، وإنَّ ما يرعبني أنَّ أموت مغمورًا وأكثر من ذلك أن أكون قد حبيبتُ سُدَى.

إنَّ كان ثَمَّة ما يجب أنْ نطرِدَ منه الأرواح الشريرة فإنَّما هو الخوف من الحياة في أي شكل من الأشكال. مَنْ يخفِ الموت لا يمكنه أنْ يستمتع بالحياة. الطفل السَّوي لا يخاف الحياة إذا ما نَعِمَ أسلافه من الاستقامة والنزاهة ما جعلهم لا يخافون الموت. فلسفة الموت في الميزان. وإنَّني أرى أناسًا كثيرًا عندنا لا يبنون، لا يصمِّمون ويقال إنَّهم "أحياء يرزقون"!

يتعلَّمون ربَّما ولا يتنفَّقون. لم يحركوا ساكنًا في الحياة. ماذا تراهم يعدُّون لها، للسلام والحرية؟

تفاهات تغمرهم ولا يتواضعون. القاتلون والمقتولون وحدهم موجودون وهم، في نظرهم، يحيون!

كلامهم جزء من الموت قبل الموت. لا يخاطبون بل يخطبون... هكذا تفنى الحيوات الشخصية و"الحضارات" فيما ألُفَّ الكتاب والتناقف تتلاشى، وكذلك كلُّ رجاء يلي الإيمان ويسبق المحبة. حتى الأحلام ماتت. متى الخروج من النفق؟

في السياسة والدين!

الصدق شجاعة وواجب. وهو كذلك على الخصوص في الشأن الديني وإلى حدٍّ كبير في الشأن العام. يستجير شعبنا عمومًا بالدين وبالأبراج على السواء في الشدائد، ويعزف عن شاهقات القيم الدينية والروحية عند تقاسم الجبنة ولا سيّما في أعلى المستويات. يركن النافذون المتوارثون والأكابر الجدد إلى انتمائهم الطائفي وامتداداته الخارجية في سبيل موقعٍ ما فيجعلون في أفضل الأحوال يومًا لهم ويومًا لربّهم ولو ظاهرًا!

يداهنون رجال الدين بدرجات وسبل مختلفة. تقوم السياسة الحقّة على العدالة للناس جميعًا بلا تفريق بين الطوائف والفئات. ونتيجة العدالة هي السلام بين المواطنين والتعاون وردم الهوة بين الفئات الاجتماعية. هكذا يحيا المواطنون بأوفر قدر ممكن من الطمأنينة في الحياة ويناضلون في الوقت عينه للترقّي والتحليق في رحاب الروحانيّات. الصغير في مجتمعنا يكاد يبتلعه الكبير كما تبتلع الحيتان السمك الصغير، وشرعة حقوق الإنسان تستلهم أساسًا في معظم

جوانبها الكتب المقدَّسة، ما يعني أنَّ البعد الأفقي للإنسان - أي حياته الاجتماعيَّة الاقتصاديَّة - والبعد العمودي - أي الجانب الديني الروحي - ممَّيزان ولكنهما ليسا منفصلين متباعدين. فالإلَامَ يدمِّرُ شعبنا نفسه ويحرق أرضه ويقتل الأخ أخاه باسم السياسة والدين على السَّواء؟

ينبغي أن يكون كلُّ مواطن خفيراً ويؤمن السلام لأخيه، لأنَّ السلام إطار كلِّ حياة كريمة تنأى عن أسباب الخوف والفقر. أنبيأونا هم رسل سلام وانوارهم انبثقت من شرقنا. والسلام الذي دُعوا إليه هو سلام داخلي يلغي كل مكر وعدوان. وهو أيضاً سلم خارجي لشعوبنا يتجسَّد سلماً غذائياً وسلماً بيئياً وسلماً أهلياً وسلماً تربوياً... هذا هو السلام الاجتماعي السياسي الذي هو وضعنا الطبيعي في هذه البقعة من العالم.

إلى السِّيَاسِيِّين!

يوم بلا عزيمة وحبٍّ، حداد في روزنامة العمر!
عليكم أن تحيوا كلَّ يوم كأنَّه يومكم الأخير...

زاولوا أعمالكم في جدية، وكأنكم تعيشون أبداً من أجل سواكم قبل أنفسكم، وكأنكم تموتون غداً دون سواكم.

تذكروا كل يوم أنكم على سبيل الإعارة، وأن هذا القصر المنيف ومنحدر التلّ ذاك وتلك الدقائق العابرة هي كلّها في عقد إيجار سطرّ معكم وليست قط هبة حصرية لكم، فلا تطمعوا بالمزيد لهوى في النفس. فالطمع يدنس حتى ثيابكم وملء إهابكم الكبرياء والتسلط.

إنّ كلّ عطية هي من باري الأكوان، فلا تكونوا كأجدادكم وأجدادهم أهل حسابات ومقايضات. عزّزوا الصناعة والزراعة أكثر من تعزيزكم التجارة. الصناعة ذوق وإبداع والزراعة تواضع وتجذّد حياة وانتماء. والمال وحده مقيت ما لم يؤازره فرح التضامن والعطاء. عودوا إلى الطبيعة المتماسكة الوادعة تنقذوا وطنكم من الغشّ والخداع.

تفادوا الارتباك والهروب والتصنّع وانظروا إلى كلّ شيء كما لو كنتم ترونه أوّل مرّة والمرّة الأخيرة. عندها يترنّح زمانكم مجداً وكرامة. والأولى بكم ألاّ تنتظروا جزاءً ولا شكوراً لأنكم خدام الأمة أوّلاً.

كلّ يوم حياة جديدة فاحيوه وارثقوا بأهازيج الحياة وسمفونيات الخلود. فمن يبدّد يومه يكنّ مسرفاً بائساً ميؤوساً منه.

إِنَّكُمْ وشعبكم إلى مائدة الكون ولتلتنقوا وتقتاتوا وترتقوا. فلا تكسلوا تلقوا خيراً لكم ولشعبكم. أغدقوا العطاء تهنأوا والآخرون على درب هدوئكم وهدايتكم. لا تدعوهم يصرخون في ضميركم الميت. واضربوا بحد السيف إن كنتم تدافعون عن أنفسكم وعن أوطانكم. وسلام على سلماء الرُّوح.

الأم... والأب أيضاً!

الرجلُ أسمى المخلوقات، والمرأةُ أرفع الخواطر. خلقَ الله المرأةَ من ضلع الرجل، وجعل لها هيكلاً وللرجل عرشاً فالعرش يسمو، والهيكل يُقدَّس.

ديَّنَ الرجلُ المجد الأعظم، وتمنيات المرأة هي أبلغ مراقي الفضيلة. المجد يُحدثُ العظمة، والفضيلةُ تقربُ من الإلهيات.

الرجل يترأس، والمرأة تُفضَّل. الرئاسةُ قوَّة، والتفضيل استقامة. الرجل قويٌّ بعقله، والمرأة لا تُقهرُ لدموعها. العقل يُقنع، والدموع تؤثر.

الرجل قادرٌ على كلِّ أعمال البطولة، والمرأة قادرة على كلِّ التضحيات... وتنشئة الأبطال!

الرجلُ معبد، والمرأة قدس أقداسه. أمام المعبد نحسر عن رؤوسنا، وأمام قدس الأقداس نقف خاشعين.

الرجل يفكر، والمرأة تحلم. التفكير لولب في الدماغ، والحلم شعاع على الجبين.

الرجل هو البحر المحيط، والمرأة هي البحيرة أو قلّ واحة في صحراء. المحيط يحتوي على اللؤلؤة التي تزيّنه، والبحيرة هي الشعر الذي ينير.

الرجل هو النسر الذي يحلّق، والمرأة هي البلبل الذي يغني. التحليق هو امتلاك الجو الرحب، والغناء هو امتلاك النفس.

الرجل منار الضمير، والمرأة ثرياً الأمل. المنارة تهدي، وثرياً الأمل تتجّي.

نهاية الرجل معلقة حيث تنتهي الأرض، ونهاية المرأة معلقة حيث تبدأ السماء.

فإذا أشدّنا بذكر الأمّ في عيد الأمّ الأولى (٢١ آذار) ونوهنا بفضل المدرسة وهي الأمّ الثانية (٩ شباط)، يحتمّ علينا واجب الوفاء، أن نشيد بفضل الأب، وهو الساهر الباني، إذ لولا جهاده

الموصول في سبيل إسعاد أسرته، لما توفّرت لأفرادها أسباب السعادة، ولما عرفوا طريق المعرفة والعلم والنور!

مدَّ الله في عمر كلِّ أبٍ شفيق، وصان الله كلَّ أمٍّ فاضلة من عَوادي الأيام، وأجزل الثواب لكلِّ مَنْ دعا إلى تكريم الأب في ٢١ حزيران، ودعم قضايا المرأة عمومًا، وخصوصًا في هذه الأزمنة الصعبة، وسعى للإشادة بفضلهما والتنويه بأيديهما البيض في ظلِّ شبه غياب لكلِّ ما تُطَلَّق عليه تسمية "دولة" التي تدول ويُتداول حولها بلا طائل، وهي أيضًا من الوجهة اللغويّة-السياسيّة، تُطَلَّق على المال المتبخّر والغلبة التي تنطوي على كلِّ ضروب المغالبة والنزاعات التي لا تنتهي.

حكومة مُبدِعين!

في عباب هذا الخضمِّ الاجتماعي، المتلاطم بالأطماع السياسيّة الرخيصة، والزاهر بالتحركات الدراميّة والفواجع المروّعة، ما زلنا ننشط بروحنا الوادعة السامية، لنبشّر بالوفاق والوئام، ولنحضّ على التسامح والتعاون بين مختلف مكونات هذا

الوطن، مُبْتَنِينَ أَنَّ المحبَّة ركن الوجود، ودعامة السيادة، ونور الصلاح والإصلاح، في عالم مُظلم ظالم، وفي دنيا يتحكَّم في مقدَّرات سكانها الحديد والنار والدمار.

هذه الروح هي روح الأدب الحيّ، المنزَّه عن شوائب الأنانية والاستئثار، والبعيد عن براكين الحقد والشغب، والمحلق في آفاق الدعة والسكينة والانسجام المطمئن.

والأدب الحقيقي النابض بالحياة والكرامة، والمنبثق من صميم التفكير الرزين والصوفيَّة المثلى، خالق بتقويم المعوجِّ، وإصلاح الفاسد، وتعميم النصح والإرشاد، وإذاعة مبادئ الخير والفضيلة، في كلِّ قطر وكلِّ أُمَّة. فالسيطرة الجوفاء ابنة الجهل وصنيعة الماديَّة الرعناء، ولا سبيل إلى التغلُّب عليها، بغير الأدب الحرِّ، لأنَّه وليد الروح الطامحة، وربيب الشعور الدقيق المرهف.

وعالمنا الصغير والكبير هذا، الغارق ولو بدرجات، في وحول الفوضى، والمكبَّل بسلاسل المشاكل والمعضلات، والمستسلم لنيَّار القوى الجارفة، في حاجة ماسَّة إلى الروحانيَّة المشعَّة بالطف والعطف والإشفاق، وإلى الاستقرار المبني على أسس السِّداد والرشاد والقناعة والحرمة المتبادلة. والأسلحة الفتاكة العابرة للمحيطات، لا تصون الحقَّ وتحميه، ولا تزيل الحروب وتحقن الدماء وتضمن السلم الدائم الذي أساسه السلام الداخلي،

لأنَّ الشرَّ لا يقاومَ بالشرِّ، والفساد لا يلاشيه الفساد، وإنَّما طريق الإصلاح واحد لا ثانٍ له، وهو تنقيف النفوس ثقافة جامعة عامرة بالرفق والمحبة والعدل الشامل الكامل.

ومتى ازدانت نفوس البشر، بمثل هذه الثقافة الحقَّة، تقاربت أفكارهم، وتعانقت نزعاتهم ورغائبهم، والتأمَّ شملهم تحت ظلال وارفة من التآلف والتحالف والتكاتف.

يوم كانت رحي الحرب العالميَّة الثانية تدور وتجور، انبرى افاذاذ المفكرِّين العالميِّين يستعرضون أسباب تلك الكارثة الكونيَّة، ويدرسون الباعث على إضرار نارها، ويحلِّلون مقدماتها وذيلولها وحواشيها، حتى إذا أذن الله أن تضع أوزارها وتطفي أوارها، كانوا قد أشبعوا هذا الموضوع درساً وتمحيصاً، وعلموا علم اليقين، أن وسائل الدفاع عن السلم، يجب أن تُقام في الضمائر والنفوس، ففي ثقافة النفس ورقى الضمير، سعادة النوع البشري، وطمأنينة الكون وازدهاره!

هل يقتنع وزراؤنا الرَّاقدون رقدة أهل الكهف، بأمثال هذه الأفكار البديهيَّة، وقد أدرجناها لهم خصيصاً في خرائط طريق منذ بدء "نشاطهم"، ولم يحركوا ساكناً؟!...

في الحظ والمصادفة!

يكاد يكون الحظ والمصادفة كلَّ شيء في الحياة. حظك مثلاً أنك شخص فَرَعَ وتصرَّف في جبن أو تردَّد. المواهب الفريدة لا تكسب صاحبها مكافأة ما لم تُؤتِها أحوال فريدة. فلنمنح أنفسنا والآخرين دوماً فرصة جديدة سانحة في سبيل حياة فضلى.

هناك عقل وحاجة في مستهل كلِّ تقدُّم بشري. هذه الأسس يجب أن تكون سوية بإزاء تلك اللحظة الخاصة من سيرة المرء وإلاَّ لن يحصل شيء يُذكر. وقد اعتبر الشاعر الإغريقي هوميروس أنَّ على المرء أن يسعى والنجاح يأتي من السماء.

لمست في الحياة أنَّ المصادفة خير من الحكمة. أليس اسم كبار المبدعين والمخترعين مرتبطاً بحادث عرضي طارئ حتى في إطار معاناة ما؟ أليس مردُّ توسُّل الكاتب القرطاس والقلم إلى أنه عاش أزمنة فجائية أوجبت خروجه إلى "شاطئ آخر" يقابل ويقارن وإن بالعودة إلى ماضٍ سحيق؟ هكذا يهجر الكاتب وسواه المدن البالية، وإن هو بقى في محيطه الذي يرفضه.

لئن كانت "كلُّ نفس ذائقة للموت"، فوعد الحياة، في كل تجلياتها، ما تقدّمه الحياة من مفاجآت اليوم وغداً فيتلقّنه بعضهم في هدي هدوئه المُستتير. فلمَ يلغي الكثيرون مناخات التواضع والمحبة التي لا توصلد أبداً أبواب الحياة كلياً؟

في الكمال!

الكمال ليس من هذا العالم!
إدراك هذه الحقيقة انتصار للذكاء البشري، وتوقُّع أنْ بلوغ
الكمال هو أخطر ضروب الجنون!
جوهر الإنسان هو المعطوبة. والكمال يبقى من نسج الخيال أو
الأحلام، بل إنّ ما لا ينطوي على أخطاء، إنّ وُجدَ، يكون بلا
حياة، وإنْ أفدَحَ الأخطاء لدى بعضهم زعمهم أن ليس لديهم
أخطاء.

يجعلنا "الكمال" نتخيّل مدى معطوبيّتنا بدرجات. وإنْ بلغ إدراكنا
مبلغ الإقرار بمحدوديّتنا، تاخّمتنا ربّما الكمال من غير أن ننتهي
إليه أبداً. وهكذا إنّ التطوُّر وليس الكمال قدر الإنسان، وهذا في

أحسن الأحوال. إنَّ شعراً كامل الأوصاف من المستحيلات. ولكن، هل الشعر حجر في متحف أو جزء من طقوس متحجرة جامدة؟ حسبهُ أنه يتطوّر على الدوام فيدهش ويسحر وخصوصاً عندما يأتي عفو الخاطر.

معظم ناسنا يقبلون على الشعر وما إليه ابتغاءً للذة. ولكننا نعتقد أنَّه ينبغي دمجهُ من البدء في نظام التربية لأنَّ الطبيعة لا تسعى إلى عمل قويم وحسب، بل تلتمس أيضاً إمكان التمتع بأوقات فراغ وربما أكثر. هذا لا يلغي ذلك. والطبيعة مبدأ كلِّ شيء، ومن يخلُّ بها يخلُّ بنظام فاطرها، ما يُعدُّ تعدياً باهظاً.

الفنون الجميلة ترقى إلى سماء الجمال وتلّين خشونة الحياة وإهمالها يهدّد المثل العليا، فتمضي النفوس - وإنْ تقدّم أصحابها علمياً وتقنياً - تتكالب على نفاهاات الوجود بعيداً عن التطلّع إلى الكمالات. والشعر رأس هذه الفنون وخلاصة الإنسان.

إنَّه أقرب إلى الإنسانية المثاليّة العاقلة من سائر الفنون وبأولى حجة من مختلف الحرف والمهن. إنَّه الأقرب إلى الكمال بفضل عمقه الإدراكي وجدّته الابتكاريّة وإيحائيّاته والصدق والفصاحة والبلاغة. فطوبى لشعر الوجدان الصافي والرقّة ورهافة الذوق والسلاسة والموسيقى الحاملة التي تتطوي على أجمل ما في النفس من عاطفة وأرقّ ما في القلب من نبض.

السَّعَادَةُ مَسْأَلَةُ دِمَاغٍ!

كثيراً ما يتحدّثون بحسن طالع وبسوء طالع وهما من المحرّمات. الواقع أنّنا لسنا البتّة سعداء أو تعساء كما يُشاع عادة. الإنسان يشقى بقدر ما يتخيّل أنّه في حالة شقاء. وإنّ أتعس الناس هو ذاك الذي يعتبر أنّه كذلك بدافع من مقتنيات أو سلطة. والأشدُّ بؤساً هو مَنْ يشعر بأنّ جهنّم في السماء أو السماء في جهنّم. السعادة تنشأ في العقل. وهي ليست أحداثاً بل تموجات في الدماغ مدّاً وجزراً.

معظم سعادتنا أو بؤسنا رهن مزاجنا لا الأحوال العامّة. نحن سعداء راضون لأنّنا نفكر أنّنا كذلك. حياتنا السعيدة تكمن في طمأنينة البال.

البؤس يُشير إلى تفكير خطأ تماماً كما أنّ اعتلال الصحة مؤشرٌ نمط حياة مُعتلّ. لذا ترى الفقير الكريم المَحْتَد لا يُشارك في التظاهرات المطليبيّة مخافة أن يُذَلَّ فضلاً عن أن التظاهر يستتبع إمكان الكفّ عن العمل والقدرة الفعلية على التحرك. بساطة الفقير ذاك وطيبته هما رافدا سعادته وقناعته.

السعادة لا تمتُّ إلى الشؤون الخارجيّة الظاهرة بكبير صلة وإنّما ترتبط بالحري بطريقة نظرتنا إليها. السعادة لا يُعقل أن تتجلّى أوفر من نظرتنا إليها. الإنسان السعيد يعرف حالته بالتزامن. والبؤس كثيراً ما يأتي نتيجة للتفكير.

ينبغي لمواطنينا، ليسعدوا، أن يعوا أن بعض المنافقين يحاولون إيهامهم بأنّ سفلة القوم هم أشرافهم وأنّ اللصوص يؤتمنون على الأوطان! فأين القيّمون على التربية يُدرجون في مناهجنا الأخلاق لارتقاء السعادة؟

سعادتهم في بؤسنا ومعاليهم في مخازينا... سخريتهم البغيضة أشبه بشعلة لا تضيء شمعة بل تترك وراءها آثاراً وخيمة. ليست السعادة بالماديّة الجوفاء وإنّما هي سعادة القلب، وأقرب سبيل إليها أن ندخلها إلى قلوب الناس. يفتشون عنها ويتناقش حولها الفلاسفة ويهيم بها الشعراء وهي في متناول أيديهم. معدنها في نشوة إنجاز ما وتألّق إبداع.

عاطلون من العمل!

معظم وزرائنا عاطلون من العمل، بل إنهم غائبون أو راقدون أو بلا تجارب سياسية. لا يعرفون حتى أنفسهم وبأولى حجة لا يعرف المواطنون عنهم أي شيء.

يكون الحق حيث تكون القوة - قوة القرار، ولا قيمة للحق أو للعدل بين أناس اختلفت قواهم.

الحاكم الشريف يتواضع لأنه يجهل الأرض الجوفاء، والحاكم الوضيع يتشامخ لأنه يجهل السماء.

ثمّة وزير يتيم نراه حرّاً، سيّد نفسه. لا شكّ في أنّه من خلل الرأي واعوجاج المنطق أن يعتقد المرء أنّه في غنى عن سواه من أنداده، ويظنّ أنّ العزلة والانكماش خير له من الاختلاط والاندماج. فوزيرنا بلغ رفعة الشأن وعزة اتخاذ القرار، وتيقن أنّه يحتاج إلى سواه، لأنّه جزء لا يتجزأ من المجتمع، ولأنّ صرح الوثام والسلام لا يرتفع ولا يزدهر ويبقى إلّا إذا تكاتف الجميع على تشييده وتعاونوا على حراسته وحفظه.

ينطق الوزير اليتيم ذاك في وحدته، وليس عزلته، بلسان الحق الصريح، ويسهر بعين العناية الفائقة، على أمن الناس وأمانهم

رغم كلِّ الرياح العاصفة من كلِّ صوب، ووراء تصميمه حنان خفيٍّ لا ينطفئ له نور ولا ينضب له معين. ولا عجب، فهو الأستاذ الجامعي الذي لا يفرق والقاضي القدير الذي يحكم بالعدل. إنَّه عفُّ الضمير، نقيُّ الوجدان، متضلّع من الفقه والتشريع، خبير بموادِّ القوانين الحقوقية، على اختلاف أنواعها وتعدّد مصادرها.

بهذه الصفات الحية العالية، وبهذه القدرة القضائية والإدارية الخارقة، شرع "زميلنا" في التدريس الجامعي، يدير وزارته المتعدّدة الإدارات والمتشعبة "الصلاحيات"، يساعد كبار الضباط، وهم من الجراة والنزاهة، على قسط راجح موفور.

في إطلاقات الوزير الشهم المقدام على الشاشة الصغيرة، وفي عباب المواقف المهيبة، تجلّت قوّة دفاعه عن الحقِّ الطّعين، وذوده عن الحرية السّلبية، ما استطاع، ونضاله عن العزّة والكرامة. سمعته يندّد بتلك الأساليب العقيمة السقيمة، المستخدمة للنيل من انتظام الشأن العامّ وإنّ في شقّه الأمني، دفعا للنيل من الأحرار الأبرار الأتقياء القلوب.

نترقّب بكثير من الלהفة، انتقال سائر الوزراء، بقليل أو كثير، إلى دنيا العمل والوجود. وفي رأينا أنّ ثمة بعدُ قضاءً ناصعا ما في ديارنا المنهوبة. هناك أباة أكفيا، لا تؤثر فيهم مؤامرات المرتزقة الذين يسيئون ويهدمون وهم لا يتقون ربهم ولا يفقهون.

أَيُّهَا الوزراء الغائبون أو المغيبون، الراقدون بلا رجاء قيامة...
التحقوا بوظائفكم لعلَّ التاريخ يذكركم في شيء!

وزير ووزارة!

الوزارة مسؤولية عظيمة تقع على عاتق خادم من خدَمَة الوزارة القائمة، ألا وهو الوزير الذي يتحمَّل أوزارها... الوزير هو الدعامة الرئيسة التي يرتكز عليها نجاح الوزارة أو إخفاقها، فالوزارة فنٌّ وذكاء... مهارةٌ وخفّة... وجهٌ بشوش ورقّةٌ في التعامل مع كلِّ مَنْ يَفِدُ إلى الوزارة أو كلِّ مَنْ يعمل فيها أو يتعامل معها...، ولكنك تقابل أحياناً وزيراً منتفخاً وراء مكتبه كالطاووس في شكله، والطبل في مضمونه، قد سحقته بيروقراطية الوظيفة فنسي نفسه وحسب أنه قد ورث هذا المنصب عن أجداده... وهو أحياناً كذلك!... فجلس في برجه العاجي يحيط نفسه بحفنةٍ من ذوي النفوس الضعيفة... فيترك لذاته من الوزارة شكلها الظاهر، ويتخلّى عن مضمونها لمن حوله من ماسحي الجوخ الذين يكونون وزارة داخل وزارة،

يسرحون فيها ويعبثون بمقدّراتها لقاء محاباتهم "معاليه" الذي يغمض عينيه عن كلّ ما يقومون به ولو كان مضرّاً بحقّ الوزارة أو بنظامها ومستقبلها... الجدير بالوزارة، أن لا تنسى أنّ المناصب والمراكز قد أوكّلها المواطنون - وعندنا النافذون! - إلى أصحابها، وقد وضعتها "الدولة" كمؤسسات عامّة تقوم جميعها على خدمة المواطن وتلبية حاجاته... فأنت اليوم في منصبك هذا، سيأتي بعدك وزير آخر ليتسلّمه منك، فكُنْ له مثلاً للعطاء والتضحية وادّخلك الوطن بأخلاق مثلى تترك في الأذهان صورة عن وزير حضر (فعلاً!) وأبدع وأخلص... جاهد وكافح فارتقى... سما... وسما به الوطن الأصيل أمام "نظرائه" الأجانب عن استحقاق...

معظم وزرائنا اليوم غائبون أو متقاعدسون... حان لنا أن نعرف مكان وجودهم وطبيعة دورهم في مرحلة نحن في أمسّ الحاجة فيها إلى من ينتشل البلاد والعباد من هذا الجحيم المقيم.

الرَّجُلُ الَّذِي لَمْ أَعْرِفْهُ!

كيف يكون الرجل (أو المرأة) الذي شأنه أن يتجلى ذكره خالداً على الزمان، مشرقاً كالشمس، عاطراً طاهراً كبنفسج الروض وزنايق الحقل؟

بحثت عنه في كتب تاريخ الوطن المتعارضة فلم أجد له أثراً نظراً إلى "تعدُّدِتنا" الكبيرة على رقعتنا الصغيرة.

أنى لنا أن نلقى إنساناً فرداً حاز إكليل النجاح ورفع لواء الازدهار والظفر، ومشى إلى غايته المثلى وهدفه الأسمى، من غير أن يعجزه صعب، أو يغرّه جاه، أو يثبط من عزيمته تهديد أو وعيد؟

بحثتُ عبثاً عن فيلسوف قدير وعلامة كبير وداعية إصلاح ورجل عمران وموقظ بلادنا من غفوة الخمول والاستسلام. بحثتُ عن إنسان ينصح ويرشد ويبين لأبناء قومه عاقبة الطغيان وجور السلطان، بالقول والممارسة. يظهر عناد روحه الأبيّة، ويألو على نفسه أن يرجع كبرياءه وكبرياء الولاة والحكّام، إلى نصاب الحق والعدل. وعندما يزداد الحكّام والولاة قسوةً وعتوّاً، يزداد قوّة وصلابة وجراًة.

ذلك العبقرى الحرُّ ذو الحياة المفعمة بالفضل والنبل والجهاد في سبيل الحريةِّ المسؤولة قلَّما رأيتُ له أثرًا في ربوعنا. وتحتَّم عليه في هذه الربوع أن يكون عازبًا أو بلا ذريَّة طامعة له تلتمس خبزًا وتقضي خلال حكمه أو بعده على الأخضر واليابس.

الفرص السَّانحة!

أن نرى ظلالاً ونعتقد أنَّها أشجار، فهذا الأمر قد يكون مؤسفًا. أن نرى أشجاراً ونعتقد أنَّها ظلال، فقد يكون الأمر مميتاً. إنَّ الفرص السانحة تحصل للجميع ولكنَّ قلة هم الذين يدركون أنَّها حصلت لهم. وإنَّ أفضل سبيل للإفادة منها هو الإخلاص لها في نزاهة وعن استحقاق. الفرص السانحة في كلِّ مكان. والرجال الرجال وكذلك أخواتهم لا يتذمَّرون من عدم حصولها في حياتهم. ولكن، لا ينتظرونَّ امرؤ فرد حصول فرص مثاليَّة أو جد مُجديَّة، وذلك نظرًا إلى معطوبيَّة الإنسان.

أُبشع أخطائنا أن نفوتَّ فرصة إيجابيّة. إنّها نادرة كالأوكسجين الذي نتنشقّه.

تتضاعف الفرص السانحة ما دمنا نلتقّقها ولكنّها تتلاشى إنْ نحنْ أهملناها. والحياة سلسلة موصولة من الفرص. فحذار، لأنّه عندما يُغلق باب ما يُفتتح باب آخر، ولكن، كثيرًا ما نطيل النظر إلى الباب المغلق فلا نرى الباب المفتوح.

وبعد، قد تكون أهمُّ فرصة سانحة لمجتمعاتنا هيَ يومَ ندركُ، أخيرًا، أن لا فائدة تُرتجى من الاستكبار والاستصغار. لا حاجة إلى التّشامخ والعيش في رواسب أسطورة عظمتنا دون سوانا، وإنّ فراغنا هو أوّل وأخيرًا فراغ رُوحِي فكري على السّواء.

أليس ما يراه طلابٌ مبتدئون أسطورة وبطولة يراه أستاذهم المخضرم حكاية فراشات اجتماعيّة؟

إنّ الفرص السانحة تختلف عن اختلاف الفرص الأنانيّة والآنيّة. فمنَ لها؟

تاريخنا يُعيد نفسه!

تستكين أمّتنا قهراً لأوّل مُستبدّ طاغٍ أو مستعمرٍ يرمي إلى منفعة وفائدة. والمصالح وإنْ متفاوتة تسود كلّ العلاقات.

يقول اللبنانيون الشيء وعكسه، لأنّ منافعهم تختلف بين حين وآخر. ولكنّ ثمة وحدة بين قول الشيء وعكسه وهي الحفاظ على الأنا لأنّ الأنا - فردياً أم جماعياً - يتكوّن ممّا يأخذ الإنسان وليس قائماً في ذاته كجوهر وإنّما هو قائم بأعراضه. أناءه المرضي ليس منطلقاً لشيء لأنّه كثيراً ما يتجلّى غير قائم في الله.

سلوكه ينبثق عموماً من انتمائه الطائفي، ولكنّ إيمانه ينطلق من مدى نفوذ طائفته وما إليها ومن مجدها الزمني أو ما تتوهّمه فيها من مجد. على ذلك "المؤمن" أقلّه أنْ يعلم أنّ المؤمن يجيء من الله ومن ضمير الإنسان الحيّ. الله يفوق كلّ الأزمنة وكلّ "عظمة" الطوائف في شقاء أوضاعها وتقلّباتها. خطاب الإيمان يختلف عن خطاب الطوائف. هناك خطورة فصام تتربّص بكلّ لبنانيّ بين ما هو الله وما هو لمكانة الجماعة في عصبية لها وطاقت وأحقاد. لذا، ينبغي أنْ نسعى جاهدين للتمييز بين المؤمن الكبير والمؤمن الصغير لأنّ كليهما ولا سيّما السطحي يفيد من وضع طائفته. كلّ مواطن يأخذ بدرجات.

ليس عند أكثر منّا إيمان لا ينفعنا، وحده، في دنيانا الفاتية! ينبغي ألاّ تجعل السياسة التاريخ يعيد نفسه!

مَشاكل... ومَشاكل!

ما من إنسان فرد لم يُعانِ يوماً تباريح الحياة. حتى أعظم الرجال والنساء يصابون بخيبات أمل وكأنَّها خبزهم اليومي. فثمة أحوال تحدُّ من حريَّتنا. وعندما تبدو مشاكل الحياة ساحقة ماحقة، ينظر المرءُ حوله فيرى ما يواجهه الآخرون ويهدأ. وقد يعتبر نفسه سعيدَ الحظ نسبياً.

على طريق شديدة الانحدار، كثيراً ما يبلغ الأبطال أسمى إنجازاتهم العظيمة. ولكن، هل تُرانا نعي دوماً مشاكلنا الحقيقيَّة؟ إنَّ مشكلة ما محدَّدة في دقَّة هي مشكلة شبه محلولة. والمطلوب ليس مَنْ يجد الحلَّ بقدر مَنْ يرى المشكلة.

إنْ نحن استطعنا أنْ ندرك المشكلة استقرينا الحلَّ انطلاقاً منها لأنَّ الحلَّ لا ينفصل عن طرح المشكلة. وهكذا، إنَّ الإجابة في طرحها تتطوي على ثلاثة: ما نعرفه، ما نجهله، وما نبحت عنه. ولكن، ما الحيلة وفي مجتمعاتنا الازدواجيَّة المنحى مشاكل مزوَّرة أو "شهادات" مزوَّرة؟

في كثير من الأحيان، لا نتفادى التقارير والتعليقات الغارقة في خضمٍّ من الملهيات، والعراقيل المزعومة والمشاكل المفتعلة أو التافهة أو "الدراميَّة"...!

مشاكلنا تتجاوز كلَّ المشاكل. مذاقها موت. والأشدُّ رهبةً فيها قبول تخيُّل حتميّتها أو "إيجابيّتها". إنَّه لارتضاء سادو-مازو شي رهيب. ندجّن الحرب والعجز والضياع. ونتكلّم على مخرج وشيكة ونصنع لأنفسنا أبطالاً وهميّين.

رادعٌ بلا وازع! (نموذج الكورونا)

قرارات الحكومات القائمة على زغل، تؤخّذ من وقت إلى آخر على السليقة. إنّها قرارات غير دقيقة، غير موزونة، ملتبسة، يشوبها الخلل. وهّاكم بعض الملاحظات حول ما قرّرته للإقفال العام:

١- الإقفال، عمليّاً، ليس عامّاً، والدويلات قائمة لتردّع أو لا تتردّع!

٢- توزيع حركة السيّارات بالمفرد والمزدوج لا يفلت من التلاعب ويزيد في تفشّي الوباء أيضاً، فالسيّارات تمسي منازل مغلقة ومتنقّلة. وما يُسمّى "كمّامة" لا يفيد فيها كثيراً ولا يبرّر الغرامات وخروج السجل العدلي من "كرامته" وعذريّته.

٣- ما فائدة إسقاط اسم هذا "المخالف" أو ذاك للقرارات على سجله العدلي في غمر الفوضى القائمة وشقاء النَّاس العام، ما يعتدُّ حياته ويجعله يتنقل أكثر وأكثر للدفاع عن نفسه إلغاءً لورود اسمه على ذاك السجل في ظلَّ تعقيدات إدارية والخلل القائم في الجسم القضائي.

٤- لِمَ نحمل المواطن العادي دون سواه على العيش أكثر فأكثر في مناخ من الضجر والاكتئاب في زوايا منزله المتداعي أحياناً، والكنيبة والحالكة الظلام، بلا حركة أو حياة كالزهرة الذابلة أو الشمعة الذائبة؟

فليكن كلُّ مواطن خفيراً يردعه رجل أمن متشدّد في إجراءاته ريثما ينشأ لديه وازعٌ في داخله!

بلدٌ يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة على الرغم من وابل كتاباتنا وكتابات شرفائنا. فمن ذا الذي يعزّز نشاط المواطن ويفتق أزهار الربيع وينضج الفواكه والثمار في الصيف؟ من تراه يخفف ارتعاد بدن المواطن من ظلم الحكّام ويجعله يستشف شيئاً من أمر مستقبله؟

ستكتظُّ المنازل، بفضل قرارات موسميّة وكيفيّة من هذه الحكومة، أكثر وأكثر بناسها شيئاً وشبّاناً، ويزداد انتشار الوباء ويُعزّب!

احذروا الغضب الآتي!

هل هو آتٍ فعلاً؟

ماذا بعد الاستحقاق الانتخابي؟ (٢٠٢٢/٥/١٥)

أولاد النافذين لن يجوعوا ولن يجوع أثرياء الحروب والأكابر الجدد. قد يرحمك مَنْ قتلْتَ أخاه في الحرب. لن يرحمك مَنْ تميتُ ابنه جوعاً.

وليست الانتماءات الطائفية السطحية والموسمية سوى ذرائع للأحقاد والضغائن الناتجة من الإثراء الفاحش والجاه الأرعن.

لعلَّ على الطوائف أنْ تحسَّ أنَّ المطلوب منها فوراً تنظيم عملها الاجتماعي لتواجه جزئياً الأزمة المعيشية. الوقف لله والله لفقرائه. مجاناً أخذ بعضهم بالتوريث ثمَّ مجاناً يجب أنْ يُعطوا!

فإذا لم تُعنَ الطوائف ومَنْ إليها بالمرضى والمحتاجين والجائعين عناية فائقة، فسيكفرون بالمحسوب على الطوائف. لا قدسية لمال ليس لحاجة. المال مال الله يخصُّ حكماً الذين يحتاجون إليه، علماً أنَّ الإنسان لا يملك فعلاً سوى ما يُنفقه. هنا ضرورة المشاركة التي تدعو إليها الأديان. نحن جميعاً مؤتمنون على كلِّ شيء والمالك يدير ما أوكل إليه ليس إلّا.

احذروا الغضبَ الآتي، وتجنبوا الاستكبار والاستصغار.
تواضعوا ترتفعوا وأنأوا بأنفسكم أولاً عن أمراض الأنا
والوراثية البغيضة على أساس من الطائفية السطحية
والموسمية. ومن يحسن خدمة وطنه، يستغني عن درجة نسبه
صعوداً أو نزولاً. وعندي أن الشريف في قومه يتواضع لأنه
يدرك قيمة الأرض والوضع يتشامخ لأنه يجهل مقام السماء.

متى يتحرر الوطن؟

ليست الحرية الوطنية مذهباً عقلياً رياضياً أو مذهباً مثاليّاً مُغرِفاً
في مثاليته أو وجودياً ملحدًا.
الحرية الوطنية شعور ذاتي ملتزم مسؤول، تجلوه إرادة واعية،
وحيث تجتمع حرية وإرادة، يتولد الصراع النفسي الذي يغدو
بمثابة الرّبان الذي يقود السفينة ويوجّهها نحو الشاطئ الآمن.
وهي إثبات موصول للمسؤولية التي تحقّق وجود المواطن
اللبناني وعدم انزاله عن المرحلة التي يعيشها.

ولشدَّ ما تأخذ هذه المسؤولية شكل صراع عنيف مع قوى خارجية باغية تأبى - دفاعاً عن مصالحها - إلا أن تمارس طاقتها في السيطرة حيناً، وفي التآمر أحياناً. ومسؤوليتنا في هذه الحال تعني مقاومة هذه القوى، وعدم الخضوع لها، ومن ثمَّ الخلاص من ربقتها، وهذا الجانب يبلور نوعاً من فكرتنا، أو فلسفتنا الوطنية عن الحرية. أمَّا الجانب الآخر والأهمُّ، والذي لا نجاح لنا في معزل عنه، فهو الإصلاح الجذريُّ الذي يتناول مجتمعنا بالتطوير والتغيير، وتحريره من كلِّ ما علق به من رواسب ماديَّة ومعنويَّة على السواء.

وكلَّما وجَّهنا جهودنا شطرَ هذا الهدف بالذات، جنبنا وطنيتنا الخطر الذي يتهدَّدُها في الداخل والخارج. ولا بدَّ هنا من احترام حرية الفرد وإرادته، لئِنَّاح لنا استثمار طاقته المبدعة بجميع ألوانها وامكاناتها، وتمكينه من الشعور الحرِّ بذاته، ليباشر في عفويَّة ورغبة، نشاطه في خدمة مجتمعه، ومن ثمَّ تحويل سلبيتِّه ايجابيةً يفيد منها ويهتدي بها، فيتَّجه من غلبت عليه عدوانيتِّه إلى صفوف العسكر ومن غلبت عليه طواعيتِّه إلى مراكز الدبلوماسية، وهكذا...

لنْ نتوفَّر لنا حرية الانتفاع من خبرات الأفراد في وطننا، وتفاعل قواهم المبدعة مع حاجات مجتمعهم، إلا إذا تمتع الفرد منا بحريَّته المسؤولة، ومارس فعلاً هذه الحرية. هذا، ريثما

نتوافق أكثر فأكثر على حقيقة وطنيتنا العقائدية الحية بالاستناد إلى فلسفة فلاسفتنا وبلاستجابة لتراثنا الحضاري دون سواه.

هل يُنصفنا الزَّمنُ الآتي؟ (شباط ٢٠٢١)

أغرب ما في الأزمة التي نعيش ونرزح تحت نيرها الثقيل وليلها الطويل ونفقها المظلم الأسود، التعدي على أموالنا المودعة جنى العمر والمهددة بالتبخُّر على نار التجبُّر والتعنُّت والجور.

أغرب ما في هذه الحرب الاقتصادية أنَّ "المسؤولين" يتلهَّون بالكيدية والنكد والنكايات حول تقاسم الحصص فيما الجوع يهدد عشرات بل مئات الآلاف من اللبنانيين، والعوز يدفع بشريحة منهم إلى التفتيش بين مستوعبات النفايات عمَّا يسئون به جوعهم الكافر على حدِّ ما تقول مسرحية زياد الرحباني منذ عقود...

قال أحمد شوقي:

وطني لو شُغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

لَكُنْتُ لَا أَظُنُّ أَنَّ هَذَا الْبَيْتَ مِنَ الشَّعْرِ يَصْلَحُ لِلْإِنْشَادِ فِي وَقْتِنَا
الْحَالِيِّ...

راحت راحة البال إلى غير رجعة وحلَّ مكانها وجع الرأس
والصداع، ما يستدعي تناول المهدئات والأدوية الدائمة للأمراض
مستعصية أو مزمنة أو تحتاج إلى علاج دائم...
وأحسُّني أميل إلى تصرفي المنضبط المهدَّب حتى انتزع حقي
انتزاعَ المظلوم الذي يحاول دفع الاستبداد عنه... وقديماً قيل:
"الساکت عن الحقِّ شيطانٌ آخرس"... وقيل أيضاً: "ظلمٌ في
السَّوِيَّة، عدلٌ في الرعيَّة".

ألمُّ ذكرياتي وأجمعها على بيدٍ العمر لأكتبها للأجيال
الطالعة. أكتبها في موضوعيَّة بقلم الحبر ممزوجاً بالصدق
والوفاء بلا تحريف أو تحوير. ولكنني أبحث دوماً عن احتضانٍ
لها للانعتاق من الاستلابات الوطنيَّة والخارجيَّة.

أنقذوا اللغة من براثن التلفاز!

في القرن العشرين، برز كتابٌ مجيدون، وشعراء مطبوعون،
وأدباء بارعون، وخطباء مبرزون، وكلُّهم استمَّؤوا، في آثارهم

الخالدة، من ينبوع الزاخر، ينبوع اللغة المتدفق من معجماتها
الأمّات، مُختارين الألفاظ الملائمة للتعبير عن أفكارهم فصاحةً
وبلاغة.

أمّا اللغويون الذين استقصوا الذرائع في جمع شتات المفردات
في دواوينهم، فقد كان لهم الفضل العميم على اللسان العربي
وأهله مدى الدهر، لحفظهم مادّته، بما أوتوه من القرائح الوقّادة،
وما انّخروه من المعارف الفيّاضة، وما بذلوه من الجهود
الجبّارة.

في أثناء القرن العشرين، بدأ عصر النهضة العربيّة المباركة،
عصر العلوم والمخترعات الحديثة، عصر النقل والوضع
والتجديد، عصر المجامع والندوات اللغويّة، يذكّرنا بعهد العلوم
اللسانيّة والمعارف الدخيلة، عهد التعريب والترجمة في بيت
الحكمة، في دار السلام.

اللغة العربيّة هي القوميّة العربيّة بالذات، هي سجلُّ تاريخ الآباء
والأجداد، هي ديوان مآثرهم الثقافيّة والخلقيّة والماديّة، فامتهانها
في هذه الأيام هو امتهان لقوميّتنا وإهانة لأرواح أولئك الآباء
والجدود.

علّة العلل، كامنّة، ويا للأسف، في تسلّم غير الأكفياة مراكز
ليسوا لها، إنّها منهم براء.

أفيقي يا وزارة التربية، أوّلَم تسمعي بعدُ، جعجعات أرحاء

التلفاز، التي بلغت عنان الجوزاء، فأصمته. أولم تزكمك روائح
نتانة فُصحاء، يبيثها في الآصال والأُمسية؟

ويا مجلس البحوث والإنماء، هلاً عطفت على الفصحى الجريح
والقاعسة الحظ، هلاً تكرمتَ عليها بالبحث في أمرها، وأظنه
بحثاً واجباً وأساسياً وملحاً، لتنتشلها من مهواتها السحيقة؟

ويا مجلس الإنماء، هلاً انتشلتَ الفصحى، من داء عياء، دهاها
فبرأها، هلاً وصفتَ لها دواء ناجعاً، فتشفيها فتنعشها فتتميمها
فتبرهن فعلاً، كونك عن جدارة ، مجلس البحوث والإنماء؟

ويا وزارة الإعلام، إنَّ سلاحك الأوحد والأُمضى والأجدى ، إنَّ
سيف فُصحاء، قد قلَّ التلفاز مقطعه، قد تَلَمَّ حدّه، فتلَّ عرشها،
وتركها موحشة تننُّ من جراحاتها العميقة. يا وزارة الإعلام،
كيف ترتضين سلاحك الأوحد، سيفاً كهاماً مغلولاً، وفي
استطاعتك جعله بتاراً ومجلّياً، لا يُشَقُّ له غبار؟

ويا وزراء الشباب والثقافة وما إليهما الغُير على الفصحى،
أفيقوا من سباتكم العميق. أما سمعتم هزيم رعود التلفاز
والمذياع، وقد سمعها كلُّ الناس، حتى طرشانهم، أولم تشاهدوا
الأخطاء الصرفيّة والنحويّة، متبرّجة تتصدّى للمشاهدين، وقد
شاهدوها كلهم، حتى عميانهم؟

إنَّ كلَّ ذي بصر وبصيرة واطلاع، يثبت له، على التوّ، أنَّ
المعدّل التقريبيّ لأخطاء التلفاز الصرفيّة والنحويّة، على مدى

نصف ساعة فقط، هو عشرة. إنها ليست أخطاء، بل شظايا
عنقوديّة فتّاكة، لا تُبقي ولا تذر، فبناءً عليه، إنّ مقدار ما
يتطاير من شظايا هذا التّفاز، في أثناء بثّه اليوميّ الواحد، هو
زهاء مئة شظيّة، أوليس هذا فادحاً وفاضحاً وكاسحاً وماحقاً
يدمّر من صروح الفُصحى التي شادتها مهارة مئات، بل ألوف
السنين أضعاف أضعاف ما دمّرت وتدمّر الغارات الإسرائيليّة
المشؤومة من أرضنا المقدّسة!

يا لضياع المجهود المدرسي الذي غدا مجهوداً مضاعفاً وعن
بُعد (On Line)، من القمّة، من "وزارة التربية"، إلى المسفلة، إلى
الإدارة، فالكتاب فالمعلم فالتلميذ! وتجنّباً لهذا الضياع، سعيّتُ
غير مرّة، في بلاد شارل ده غول والعَمّ سام، لأنّ أعزّ شأنٍ
فُصحانا بمؤازرة منهجيّات تعليميّة وروح نقديّة على السّواء.

المرأة بين الذات والحضور!

يتعذّر عليّ، تحت كلّ سماء، القول بأنّ المرأة هي دون الرجل
بسبب ضعف ما جسدي أو ذهني... هذا ما حاولتُ إثباته في

مولود لي بعنوان **فلسفات الثورة**. المرأة والرجل يتميَّزان في معظم الشؤون الحيائيَّة، وهذا لحسن طالعهما. ولئن تبيَّن خلال التاريخ تقدُّم ظاهر للرجال على النساء، فمردُّ ذلك إلى مراحل الحمل لدى النساء، وهي مراحل يمسي خلالها الرجل متحكِّمًا في حياة المرأة. لذا ألزم الرجل المرأة أحيانًا السفر، ليس في طلب العلم وهو أحيانًا منه براء وإنَّما لينال مولودهما التابعيَّة الأجنبيَّة ويتنعم بتقديماتها...

أثبتت المرأة في عقر دارها أخيرًا، أنَّها صاحبة معرفة متورِّة بالعلم، جعلت الشارع، بعد بيتها، واحة هناء وحوار سخي.

تفياً شبابنا في ظلال النساء فجنوا حبًّا غامرًا وسعادة نسيبة أنسَّتهم النضال وشقاء الحياة وشدائدها. مسحت بعض الإعلاميات على أرض الحدث عن الرجال والصبيَّة تعبهن بالبسمة الحانية والعبارة العذبة الرقيقة. قسوة السلطة قد تُفاقم التمردُ فيأتي لين السيِّدات أو حتى عزمهنَّ لتخفيف وطأة العدوانية واستنهاض الهمم على السواء.

تجلَّت المرأة في المرحلة الأخيرة وحتى أحيانًا لدى بعض القيمات على شؤون النَّاس، شرقًا وغربًا، خشبة خلاص أو متنفسًا للعقد النفسيَّة والمعضلات الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة.

لا تُبنى الأوطان إلاَّ على المحبة والتضامن والإخاء المتوافرة كلِّها لدى المرأة قبل الرجل. النساء الشرقيَّات قلَّما يفرِّقن على

أُساس من الانتماء وهنَّ تالياً دعامة لأوطانهن. تجمعهنَّ راية واحدة لا تفرِّق بين فريق وفريق. وشهادة أُنجالهنَّ أو إخوتهنَّ يختلط فيها دم كلِّ شهيد بدم الشهيد الآخر.

في صفوف رجالنا عدد من الخائفين الذين لا يصنعون الحرِّيَّة، ومنهم ضعفاء لا يخلقون الكرامة او متردِّون لا تقوى أيديهم المرتعشة على البناء. أمَّا معظم النساء، فتتجلَّى روحهنَّ في أوقات الضيق والحراك، نشوى مترنِّحة، وترقص قلوبهنَّ طرباً، وترَاهنَّ يجتزنَ بحيرات الشتاء وجبال النفايات، وفرحُ العطاء والحياة يدفعهنَّ ويفجِّر من صدورهنَّ الأهازيج.

الشَّفَقَة على الذَّات!

تتسرَّب الشَّفَقَة على الذَّات إلى كلِّ منَّا تسرُّباً طبعياً. ولكنَّ الشَّفَقَة على الذَّات هي ألدُّ أعدائنا وإنَّ نحن استسلمنا لها لم نتمكنَ قطُّ من القيام بأيِّ عمل في هذا العالم. الشَّفَقَة على الذَّات هي بالنسبة إلى الحياة كالسمِّ في الطعام. ومن الغريب أن يتجلَّى إنسانٌ فردٌ من الوهن بسبب ألمه أو مشكلته بحيث لا يتسنَّى له أن يشارك ولو قليلاً في الجحيم الذي يقيم فيه أقرب المقربين إليه.

النَّذْمُ موتٌ للحب، والشعور بالأسف على أنفسنا هو من أشدّ الأمور تقويضاً لاستقراره.

الشَّفَقَةُ على الذات هي من أخطر أشكال مركزيّة الأنا. إنها تشوّشُ رؤيتنا. وإنَّ سماع الشكوى والتملّص لمرهق بإزاء البؤس والسعداء على السّواء. إنّه نقيض أجواء الإيمان الراسخ. وإذا كان المرء ملحدًا حقًا، تبيّن أنّ السبيل الوحيد المتاح له للتخلّص من حلقة الشَّفَقَةِ على الذات الجهنميّة، هو التوقّف عن مقابلة الذات بالآخرين والاكْتفاء بمتابعة المسيرة الذاتية في هدي الضمير الحيّ. هكذا، لئن تبيّن الوجع الجسدي لا مفرّ منه فإنّ الألم النفسي شبه اختياريٍّ إلى حدّ كبير.

في مجتمع يستحوذ عليه سلوك سادي ومازوخي معًا، أدعو إلى ثورة حقيقيّة من أجل الحقّ الذي منه وحده ينبثق لبنان الجديد. وحدهما الحقُّ واحترام الذات يُعتقنا ممّا نتخبّط فيه من الضياع. كونوا أولاً ثورة على ذواتكم في موضوعيّة ومحبة على السّواء.

لا أمان للأمان!

كثيراً ما يتجلى الأمان خرافة وشعوذة. فلا أثر له في الطبيعة... وإنّ تجنب الخطر ليس آمناً، في الأمد البعيد، من التعرّض السافر له... الإنسان الخائف يُلقى القبض عليه مثلما يلقي القبض على الإنسان الشجاع.

الأمان إله زائف، فما إنّ نضحّي من أجله حتى ننتيه. وإنّ الإنسان الذي يبحث عن الأمان، حتى في ذهنه، هو أشبه بإنسان يبتتر أطرافه للحصول على أطراف صناعيّة لا تتسبّب له بألم أو اضطراب.

إنّ أنتَ رغبتَ في أمان تامّ، فالإيكَ غياهب السجن. فهناك يوفرّ لك الطعام واللباس والأدوية... ما دامت متوافرة في الحياة العامّة. ولكنّ ما تفقر إليه هو الحرّيّة!

الحياة ليست منتظمة. لا يهمّ كيف نحياها، فنحن قد نفارقها في منتصفها أو نبتر ساقاً أو نحبّ. والواقع أنّ لا شيء ننتظره سوى ما هو غير منتظر. لا يمكننا ان ننتظر السعادة أو الاعتزاز. ليس هناك أمان على وجه الأرض بل فرص سانحة. حتى إنّ بعضهم يعتبر أنّ لا مجال للمخاطرة خارج العلاقات البشريّة.

لا شك في أنَّ الحياة السياسيَّة الفضلى تلاقٍ بين الحريَّة والنظام. ولكنَّ هذه العلاقة بينهما دقيقة. فهناك الفوضى وطباع الاستبداد. هنا ينبغي لإعلامنا تخفيف حدَّة الإشكاليَّة التي لا محيد عنها، وتعزيز قيم الجمال والذوق والمعرفة العميقة والأخلاق الثابتة.

الشعب، في عمق أعماقه، يفتقر إلى الطعام العقلي (أيضاً) تعزيزاً للقيم هذه. وعندما نمارس هذه الثورة الثقافيَّة الإنسانيَّة، نكون آمناً بالحقيقة الحقيقيَّة وسرنا شطرَ تعمير الوطن على أسس راسخة وإنَّ هي غير مكتملة. فالأمان - الذي هو داخلي أولاً - لا يكتمل كما أسلفنا، على الرغم من أنَّ بعض المذاهب الماورائيَّة تسوِّغه، حتى إنَّ شيئاً من اللأمان من الضرورة بمكان تحقيقاً للنقد.

الأمان والمال!

حيثما وجدتَ فقيراً، تصدَّقْ عليه. ومنَّ يسرْ في طريق الخير، امشِ وراءه، ومنَّ لا فلا! هذا كلُّ ما أوصيتُ به وحيدى ليوصي به عصفوريَّه الصغيرين هو أيضاً!

إِنْ كَانَ الْمَالُ أَمْلَكَ بِاسْتِقْلَالِيَّتِكَ فِي الْحَيَاةِ فَلَنْ تَحْصَلَ عَلَى أَيِّ مِنْهُمَا. الْمَالُ قَدْ يَسَدُّ الدِّيُونَ وَلَا يَسَدُّ الْخَطِيءَ! الْأَمَانُ الْحَقِيقِيُّ الْوَحِيدُ فِي هَذَا الْعَالَمِ هُوَ مَخْرُونُكَ الْمَعْرِفِيِّ وَالْاِخْتِبَارِيِّ وَالْمَسْلُوكِيِّ. وَأَكْبَرُ وَهُمْ هُوَ التَّعْوِيلُ عَلَى أَمَانٍ مَتَّاتٍ مِنْ دِيمُومَةِ الْمَقْتَنِيَّاتِ الْمَادِيَّةِ. عَلَيْنَا تَالِيًا أَنْ نَبْحَثَ عَنْ عَمَلَةٍ أُخْرَى. ذَلِكَ أَنَّ الْأَمَانَ الْوَحِيدَ الَّذِي هُوَ بَاطِنِي يَتَحَقَّقُ فِي الْإِنْجَازِ وَالتَّنْفِيزِ.

الْمَسْأَلَةُ لَيْسَتْ مَسْأَلَةُ مَدْخُولِ مَادِي وَإِنَّمَا مَسْأَلَةُ حَسَاسِيَّةٍ بِالْغَةِ. فَالْأَمَانُ لَا يَرْتَبِطُ بِمَا لَدَيْكَ مِنْ مَقْتَنِيَّاتٍ مَادِيَّةٍ بِقَدْرِ مَا هُوَ مَا يُمْكِنُكَ أَنْ تَفْعَلَهُ فِي مَعَزَلٍ عَنْ هَذِهِ الْمَقْتَنِيَّاتِ. لِذَا، الْأَوَّلَى بِكَ أَنْ تَتَنَدَّمَ عَلَى فَعْلَتِكَ الشَّنْعَاءِ مِنْ أَنْ تَتَنَدَّمَ عَلَى أَمْوَالٍ قَدْ تَبَخَّرَتْ وَلَمْ تَتَفَقَّهَا بَعْدَ، وَلَكِنْ، رَبَّمَا، لَا تَسَاعَةَ مَتَدَمٍ.

مَقْتَنِيَّاتٍ وَطَنُنَا أَوْ أَصُولُهُ مَا زَالَتْ عَظِيمَةٌ وَلَكِنَّ عَجْزَ مُعْظَمِ مَسْئُولِيهِ شَيْءٍ رَهِيْبٍ. وَالْأَرْهَبُ مِنَ الْعَجْزِ قَبُولُ الْعَجْزِ. لَا عَجَبَ إِذَا أَنْ يَتَفَرَّجَ عَلَيْنَا الْغَرِيبُ كَيْفَ نَكَادُ نَمُوتَ. وَلَكِنَّ الذَّنْبَ لَيْسَ ذَنْبُهُ إِذَا مَا قَيْسَ بِمَعْصِيَةِ الْنَافِذِينَ عِنْدَنَا حَتَّى بِاسْمِ الدِّينِ أَحْيَانًا.

دَجَنَّا عَجَزْنَا وَلَوْ بِاسْمِ أَمَانِنَا الظَّاهِرِ بَلْ قُلْ أَمْنُنَا الْمَمْسُوكِ إِلَى حَدٍّ مَا، وَهَذَا نَحْنُ نَدَجِّنُ شَيْئًا فَشِيئًا قَبُولُنَا الْحَيَاةَ الذَّلِيلَةَ. الْمَعْجَزَةُ نَادِرَةٌ وَأَرْجَحُ أَنَّهَا مَا زَالَتْ قَائِمَةٌ فِي طَهَارَةِ قَدَيْسِينَ وَأَوْلِيَاءِ نَفَّتْ عَدَدًا مِنَ الْمَوَاطِنِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ وَرَفَعَتْ هَامَاتِهِمْ وَلَوْ تَحْتَ

سقف الفقر والعوز، فباتوا منذ الساعة هذه يطيرون إلى ينبوع كمالهم بأجنحة النور.

في العَفْوِيَّة!

عندما تصدر عنك في المجتمع إيماءةً ما بلا شرح وتفسير بل بدافع العَفْوِيَّة التي تتناغم مع الضمير الحيّ، تتيقَّن أنَّك على جانب من الصدق والصواب. بتوافر العَفْوِيَّة ترتقي يقظة الذات، وبها يتمكَّن المرء من النجاة بذاته من اجتياح الخبث وفساد الأخلاق اللذين ينبثقان من عقل مدبِّر ما.

لا تعني العَفْوِيَّة الإشارة إلى كلِّ الأمور بلا تفكُّر، وإلقاء الكلام على عواهنه، والتصرُّف بحربائيَّة وتكلُّف إخفاءً للمكر والخداع. فالحياة لا يُعبث بها، وليست دعوى جاهليَّة جهلاء ممعنة في الطيش والعصبية والضلال.

التحليل، على أهميَّته في العلم والشأن العام، يقضي على العَفْوِيَّة. حبة القمح التي تستحيل طحيناً لا تثبت من جديد. العَفْوِيَّة هي القدرة على التصرُّف بفعل ما نشعر به في اللحظة

الآنيَّة وبفعل ثقنتا بغرائزنا الحميدة وأخذ نفسنا على حين غرَّة
وانتزاع الذات من براثن الرتابة إلى آفاق دهشة ليست في
الحسبان.

لا ضرورة إذاً للمماحكة حول الحياة والموت وحول الاتهامات
المتبادلة والحسابات الضيقة والاعتبارات الوهميَّة، علماً بأنَّ لا
إكراه في العلم وشؤون الناس. فلنتجاوز كلَّ عائق أو رادع
كلامي أو سلطوي وليستطبَّ كلُّ مواطن مكانه فيحترم نفسه قبل
احترام الآخرين. هذا أضعف الإيمان إذا شئنا الخروج من
الجمود إلى الحياة.

فلنكفَّ إذاً عن الاستعلاء ونصبرُ مبتسمين على مضض الحسود
وننمَّ واجباتنا البديهيَّة ونسعَ في تحصيل دائم للعلم والفضيلة ولا
نوبخنَّ الجاهل لئلاً يعدينا عيبه.

ندعو، أقلَّه، إلى ألاَّ يتفوَّه ذوو النفوذ سوى بما يشعر به قلوبهم،
وإلى أنْ يُعهد إلى المتفكِّين بعقلنة سياسات ذوي النفوذ، وإلى أنْ
يخدم الكادحون عموماً الأمَّة كلُّ من موقعه. ولكن، مَنْ تراه
يسوس الضواري؟

أهمية الحوافز!

إنَّ ما يجعل الحياة على جانب من الكآبة هو حاجتها الموصولة إلى حوافز. ولكنَّ الذين يستشرفون المستقبل في ذواتهم لا يموتون. ما دامت لديهم حاجة إلى التطوُّر هناك لديهم مبرر لوجودهم.

الرضا موت. فعلى المرء أن لا يتصدَّى لل رغبات لأنها محفِّزات قويَّة تؤكِّد الإبداعية والحب والتعلُّق بالحياة على العموم. سرُّ الانضباط هو الحوافز. فعندما يستحوذ المرء على قدر كافٍ من التحفيز على العمل يستقيم الانضباط من تلقاء نفسه فيكون وازعاً أكثر منه رادعاً.

الموهبة لا تكفي. فهناك حوافز ومثابرة، إيمان ونضال. في سنٍّ مبكرة، يتبيَّن الفقر أو النقص ضروريًّا للتقنم فضلاً عن تعطُّش شديد إلى إثبات الذات ونيل التقدير. ينبغي للفتى أن يشعر بأنَّ عليه "أن يريهم ما ليس في الحسبان" تمهيداً للنجاح الذي ليس كل شيء، لأنَّ الرغبة في العمل هي المحرِّك الأوَّل. لذا، على المرء أن يعالج نفسه ببراً وينتهج طريق الخير والفلاح يمشي وراءه. المحاولة أهمُّ من القدرة. النجاح الفعلي يأتي علاوة على ذلك.

على الرئيس المنتظر أن تكون لديه أقلّه حوافز الشباب المبدعين: أن يؤمن بقيامه بالواجبات بإزاء المواطنين الملتئمين في بوتقة واحدة وانتظام، وأن يتجاوز الحوافز السطحيّة الآنيّة وحتى الجماعيّة الضيقة في سبيل ترسيخ حياة متكاملة متضامنة متماسكة تبعاً لمبادئ وطنيّة ثابتة وأخلاق رويّة مشتركة. من تراه يحمل خطايا السياسيين المتعاقبين المتوارثين أوّلاً قبل أن يعنى بالاقتصاد وحتى بالشأن الثقافي؟ الشأن العام هو الأساس، وهذا ما تعنيه كلمة "جمهوريّة" في اللغات الأجنبيّة. فلننتجهمُ حول رئيسنا المنشود، فلا تبقى شهوات بعض السياسيين البشعة حوافز لوجودنا أو عدم وجودنا. عندها تنطلق أهازيج الحياة تلقائيّاً من حناجرنا.

بين المشكلة والحل!

نحتاج إلى حجرٍ صوّان لنضرم ناراً ونبصر نوراً. الثنائيّة التكامليّة مبدأ الفكر والحياة. فلنمسك عن أن نعيش عالّة على غيرنا ونبحث عن الاحتراف والإبداع والتفاعل الجدّي مع الآخرين.

هذا، علماً بأنَّ في كلِّ امرئٍ بذور تدمير ذاتي يتسبَّب بتعاسة إنَّ أُتيح له أن ينفاقم.

نرى في حياتنا اليومية على التَّفَاز علامات إحباط وتشاؤم بادية على الأوجه وفي السلوك المتلاشي للنَّاس تتنابه فترات من النواح أو فورات من الغضب ثمَّ نوبات من الضحك. علينا أنفسنا نفْتَش عن معاييها. أجل، ولكن، هل تغيب بلاد النَّاس عن مسرحنا الوجودي؟

نحن في غابة يضرَم فيها القريب والبعيد النار، ولكنَّ الغريب لا يتدخل في شؤوننا ما لم نُفسح له في المجال. فهل بلغنا مرتبة من المعقوليَّة تجعلنا نتجاوز إمكان الاشتعال من اللحظة الأولى؟ العقول جرثومة الحروب لا الغرائز. تستفيد عقول الكبار من ذكائنا النسبي والغريزي في معظم الأحيان فتتكشف الغرائز وتتأجَّج. ولكنَّ قِيس الحرِّيَّة المسؤولة الذي ما زال يشعُّ من بعض عقولنا النيرة ينبغي أنْ ينتشر ليشمل القرييين والبعيدين على أفضل وجه وأنبِل قصد.

نحن الداء ونحن الدواء، فمتى ننتعق من الاستلاب الذهني الذي سبق أنْ جعل أعداءنا في الجنوب يقاتلون بوساطته العقل الغربي عموماً قبل أنْ يغتصبوا أرض فلسطين؟ إلأمَ يبقى بعض العرب مرجئة يعتقدون أنَّ الله يُرجي عقابهم فراحوا يرجئون خلاص وطن الأرز من الموت؟

وعلى الرئيس المقبل ألا يكون لنا فيعصر أو يابساً فيكسر. عليه
ألا يجزع مهما انتابه من نوازل فيعلن الحقائق ويبشّر برسالة
لبنان.

الخطوة الاولى!

الخطوة الأولى في حياتنا هي دائماً الأكثر صعوبة. ورحلة
الألف من الأميال تبدأ بخطوة واحدة. وما إن نخطو خطوة إلى
الأمام حتى نعكر صفو أمر ما وجودي. وإذا ما أخطأنا العروة
الأولى من المعطف لا نعود نفلح في تزييره.
إذا لم تثبت قدميك على الحبل لم تتجاوز الهوة أمامك.
القانون الطبيعي والشرعية الإلهية هما، مبدئياً، منطلق سلوكنا
وأعرافنا التي نقولُ بها لنحيا في هديها. إنها حقيقة مطلقة على
الرغم من التطبيقات هنا وهناك، حيث ينبغي لأهل التشريع
وأهل السياسة أن ينظروا إلى أحوال الرعية فيراعونها ثم
يرعونها.

نقطة الانطلاق إذاً، من الوجهة الاجتماعية والسياسية، ليست
الغريزة أو الاعتبارات القبلية والطائفية الضيقة. هذه ترفض

عمومًا سيادة العقل على العلاقات البشريّة وما يرتبط بها من حقٍّ وضعيٍّ يجعل الإنسان السوّيَّ ينأى عن المنفعة الشخصية لمصلحة المنفعة العامّة التي تُراعي العدل والحرية في الوقت عينه.

الحكم ليس تطبيق قوانين بالتساوي فحسب وإنما هو احتضان حبّ. هكذا تسمي الدولة أسرة واحدة رغم تنوّع أبنائها بل بفضل هذا التنوّع. نقطة انطلاق الدولة هو تدبير شؤون المواطنين في سياق من الأولويّات والألويّة لإطعام الفقراء وإيوائهم وتعليم أولادهم، وكذلك تربية المواطن الدائمة على تنقيف نفسه والركون إلى حريّته المسؤولة. الجمالات في الخطب والوعود عندنا كثيرة لكنّها ما زالت تفتقر إلى وحدة هويّة جوهريّة في ظلّ ركام المنازل والقلوب، وكرامة وجوديّة ترتاح إليها جميع النفوس في عطشها إلى أرض ثابتة تحيا فيها إلى أن تطويها الأرض.

في النّجاح والقيادة!

النجاح في المدرسة غيرُهُ في الحياة، والنجاح في الحياة غيرُهُ أمام حكم الضمير وحكم الديّان الذي ينبغي أن نستصبح في سبل

الهدى بضياته. ولكن، ما من توصيف دقيق للنجاح ولا يسعنا أنْ نحدِّده. في مقدورنا أنْ نحياه إلى حدٍّ ما. وقد يؤازر بارئ الأكوان الإنسان في نجاحه عندما ينظِّم حياته بحيث لا يحتاج إلى أنْ ينجح في أنْ يُسعدَ بذلك.

إنَّ المرءَ المغتبط بنجاحه أو المكتئب من إخفاقه، ما زال كائناً مادياً. تتحرَّك في ثماره وفي أحسن الأحوال دودة ما. ولا فعل يُزعج في العالم كالسعي وراء الشهرة. لا شيء يخفق كالنجاح لأننا لا نتعلَّم منه. قد نتعلَّم من الإخفاق ليس إلّا. والقائد الحقيقي هو مَنْ تحلَّى بفطنة تمكَّنه من رؤية خطوات أمامه جديدة ممكنة، وبشجاعة لاختبارها وقدرة التمييز لقياس نتائجها. النجاح كثيراً ما يجعل البشر متصلِّين فيميلون إلى إثثار الاستقرار على أيَّة فضيلة. لقد أرهقهم العمل الإرادي فأمسوا متشدِّدين في تحفظهم.

الوطن جغرافياً نقرِّر الالتصاق بتاريخها مهما تبَيَّن مفاجئاً لأننا شهود حبٍّ وتسامح. فمتى نرتضيه على رداءته من أجل صمديَّة الله وكرامة الإنسان؟ متى ندرك أنَّ الله الذي نذكره ليلَ نهارٍ لا يتجلَّى لنا إلّا بالتعب والصبر حتى المنتهى عبر إنسان بات من الضروري أنْ نحدِّد معالمه ونستقرئ مجاهله، ريثما يأتي متجدِّداً يتَّسع لحرية الجميع؟ متى ندرك أنَّ الإنسان الناجح هو الإنسان الذي يقوم بأعمال لا يحبُّ الإنسان المُخفِّق القيام

بها؟ إِنَّا نَحَقِّقُ جزءًا من نجاحاتنا الفعلية عندما نتربّي على القيام بواجباتنا لأنّها واجباتنا، فهل تظلُّ هذه الأفكار البديهية مطوية دون سوادنا الأعظم؟

في أسباب الإخفاق!

أَنْ نُوَفِّقَ بين الواقع والمعنى، ذلك هو الحلُّ لازدواجيّاتنا المقلقة.

الإخفاق إخفاقان: إخفاق مَنْ يعرف ولا يفعل وإخفاق من يفعل ولا يفكر. الهزيمة بمثابة نتيجة للوهن وعدم التماسك والضجر. قد يأتي الإخفاق في مهمة ما نتيجة للقيام بها في الوقت غير المناسب. وقد يخفق المرء بسبب من خجله أكثر منه بسبب جرأته النادرة. وهكذا، إِنَّ النقص في قوّة الإرادة يتسبّب بإخفاقات أكثر منه النقص في الذكاء. فلنركبْ إذاً البحر لشقّ عبابه ولنخوض في موجه، على أَنْ نتجنّب التهور.

إِنَّ كلمة "قَدَر" ذريعة كلِّ إخفاق نقرُّ به. ومعظم ما يخفق فيه المرء مردهُ إلى الخوف من القيام بمحاولة معيّنة. وَمَنْ يخافُ أَنْ يفشل يضعُ حدوداً لنشاطه. ذلك انَّ معظم البشر يفشلون ليس

بسبب نقص في ما تلقَّته على مقاعد الدراسة بل بالأحرى نتيجة نقص في المثابرة والإرادة فينسون أو يتناسون مُثْلهم العليا ومبادئهم السامية.

منذ عشرين ربيعاً، ألَّفتُ كتاباً حول الإخفاق. وأُنهيته بإشارة إلى أنني أُوثر الإخفاق في فخر واعتزاز على النجاح عن طريق الغشِّ والحيلة. العجز عن مقاومة عدوِّ حقيقيٍّ وقهره يُعدُّ إكليل غارٍ لنا لأنَّه "عدو غاشم"، ولكنَّ التغلُّب عليه بلا وجه حقٍّ إخفاق وعدوان، لأنَّ مردَّ ذلك إلى أننا ننهى عن المنكر ونعمله. ننهى عن خلقٍ ونأتي بمثله. المقاومة المتعدِّدة الأوجه محقَّة حصرًا في الدفاع عن النفس وعن الأوطان.

لنسعَ منذ الساعة لأنْ نبقى في عرس مع العالم في سياق الماوراء والمابعد. عندها يستحيل لهيب النار لهيبَ نور ينسكب علينا انسكاباً موصولاً. ومن الثابت أنَّ "كلَّ شيء هالك إلاَّ وجهه" أي إلاَّ وجه الله. كياننا يبدأ ههنا نتيجة التلاقي الموصول عبر حوار الحياة. يبدأ من مدننا الرابضة على المياه ويمتدُّ إلى جبالنا المكَّلة بالبياض وصولاً إلى سهلنا المعطاء ريثماً يبلغ ما قدَّره الله للشرفاء العقلاء في العالم.

في النّجاح والهناء!

لا يُقاس النّجاح بالمكانة المرموقة التي يبلغها المرء في الحياة بقدر ما يُقاس بالعقبات التي يذلّها في مسيرة حياته. ديدنه ليس في أن يتقدّم على الآخرين بل في أن يتقدّم على ذاته فيكسر أرقامه القياسية، يتفوّق على أمسه بحاضره ويضطلع بعمله بقوة متنامية. هكذا يغدو نجاحه طريقاً، وإن متعرّجاً، مليئاً بالمغامرات والتحدّيات والصبر، ولكنّ لطعمه حلاوة لا توصف. له تأثير السحر في تحقيق الذات وانسراح الروح.

النجاح سلام النفس وشعور عميق بأننا بذلنا قصارى جهدنا لنغدو أفضل ما يمكن أن نكون. والإخفاق وقود ودافع للمثابرة. وهل الأجنحة التي لا ترفرف تطير في الأجواء؟ إذا تبين مصعد النجاح معطلاً نستخدم السلم درجة درجة ولكن من غير أن تكون يدانا في جيبيّنا.

النجاح نسبي. إنه ما يمكننا أن نصنعه ممّا تتداوله الأيدي وتتناقله الألسن ويجتهد الناس في الجري عليه. الجيش التقليدي قد يخسر معركة وينتصر في الحرب أو العكس. أمّا المقاومون المدافعون عن أنفسهم وقضايا أمّتهم، فهم ينتصرون حتى إن خسروا. نجاحهم، إن صفت نيّاتهم، يُقاس بمدى عزمهم على الاستمرار في المحاولة.

إذا اتَّسع الوقت، فاجعله أسراً أخذاً، تربح حتى إذا خسرت. فالنجاح ارتقاء إلى مستوى إمكاناتك... إستيقظ مبتسماً وامض في رحاب الحياة... عَشِّها وتمتَّع بها. تذوقها وتنشَّقها واشعر بها في صميمك وقلْ إِنَّكَ تجاهد الجهاد الحسن وستُكمل مساعيك لتحظى من بارئك بإكليل البرِّ حتى إذا كُسرت شوكتك وذهبت هذه المساعي سدًى.

ومثلما يمضي المؤمن إلى الصلاة فيكسب أجراً، كذلك، مَنْ يتصدَّق لا يَضِيع أجره خصوصاً في الأزمنة الرديئة، وتباً لفلسفات الموت الباطلة لأنَّ الله أوجدنا للحياة وهو ليس خالفاً للشرِّ. النجاح، على نسبته، أمر رائع، ولكنَّ الأروع أن تتكاتف الجماعة وتتضافر لبلوغه.

الأصدقاء والمال!

أثرى إنسان ليس الذي ما برح يدَّخر أوَّل دولار جناه في حياته، وإنما هو الذي لا يدَّخر جهداً في الحفاظ على أوفى صديق. الأولى بنا ألا نقول "لقد أعرتُ أحدهم مبلغاً من المال"، بل "لقد أعرتَه أذنًا صاغيةً أو اهتماماً أو التفاتاً أو انتباهاً"، و"أعرتُ المسألة أهميَّة قصوى". الأولى أن نقول "لقد أعطيتُه الثقة

والمشورة والمثل الصالح والرأي السديد عن طيب خاطر وفي أجواء من السعادة. إنه العطاء المجاني الذي نغدقه على الآخرين في محبة وإخلاص.

الغنيُّ غنيٌّ بأصدقائه المخلصين. وهل يعلم الأغنياء مَنْ هم أصدقاؤهم؟ الرفاه قد يفضي بنا إلى اكتساب العلاقات لا تكوين الصداقات. من المناسب أن نكون أغنياء أو أقوياء، ولكن، من الأفضل أن نحظى بحبِّ الأصدقاء. الأجدر بنا أن نلقى أصدقاء حولنا من أن نلقى مالاً، بشرط ألا يكون الأصدقاء أفقر منا أيضاً. في أوقات الضيق ينبري الصديق الوفي يفيدينا أكثر من المال الوافر. والثابت في مجتمعاتنا أنه إذا ما أثرى أصدقاؤنا تضاعفت تكلفتهم لدينا!

بين المال والأصدقاء أوتر الأصدقاء. وبين الأصدقاء والحقيقة أرجح كفة الحقيقة.

ثمّة تدرُّج ثلاثيٌّ نشهده على التلفاز مثلاً. فعلى الشاشة الصغيرة صور أشخاص أكثر من سرد أحداث، وسرد أحداث أكثر من أعمال فكر والتوق إلى المثل العليا. يتقدّم الأشخاص على الأحداث وهذه على الفكر! وهكذا يتصدّر صدر سيّدة متصابية التلفاز أكثر من خبر صدور كتاب جديد، وصدوره في ذاته أهمّ من مصادره الغنيّة ومضامينه المثريّة.

لا شكّ في أنه ما زال لدينا مُبدعون. ولكن، ما حياة الإنسان

عندنا سوى صراع مستديم؟ الإنسان بأصغريه: قلبه ولسانه.
فمن ذا الذي يفسر لنا ماهية الخلق التي هي نوعان: مَوَاتٌ وذو
حياة؟

من لي بأجنحة النسر فأطير إليك، يا ينبوع كمالى؟

في اللامبالاة!

إيّاك أنْ تدعَ التسامح يستحيل لامبالاةً!
إنّ معظم ناسنا ليسوا مع أو ضدّ أيّ من المقاصد البشريّة،
والسبيل الأنجع لجمع شملهم هو جعلهم يستجيبون بطريقة أو
أخرى لهذه الإشكاليّة ويتغلبون على الجمود القاتل. ذلك أنْ ليس
أقصى من برودة اللامبالاة وجمودها.

في أيّ من الفئات العمرية، لا يعقل أنْ نسعد حصراً بالجلوس
إلى جانب مدفأة متفرّجين. من المقرّر أنْ نحيا الحياة ونحافظ
على حبّ الاستطلاع والاستفسار. لذا، على أيّ منا ألاّ يدير
ظهره للحياة لأيّ سبب كان. فالشريك في جريمة الفساد كثيراً
ما يظهر بمظهر اللامبالي وهو من اللامبالاة بدرجات.

نقيض الحبّ ليس الكراهية - ومن الحبّ ما قتل - وإنّما

اللامبالاة؛ ونقيض الفنّ ليس القبح - وهناك جمال القبح - وإنّما
اللامبالاة؛ ونقيض الإيمان ليس البدعة - وهناك "بدعة"
الهدى - وإنّما اللامبالاة؛ ونقيض الحياة ليس الموت - وللموت
ألوان - بل اللامبالاة أيضاً.

قد يكون العلم ابتدع علاجاً لمعظم الأمراض، ولكنّه لم يجد
علاجاً لأسوأها وهو خمول بعض الكائنات البشريّة. نتحدّث بهذا
المذهب أو ذاك والمذهب هو ما نذهب به إلى الله.

أرى العمل الناشط الهادف ينهض بالإنسانيّة، وأرى أُمّامي أناساً
جالسين القُرُفصاء متكاسلين متخاملين في حين أنّ بعض الأخوة
العرب حوّلوا الجُمادِ جَنَّةً يَقلّبون الأرض سماءً يزدهي فيها
الجمال والهناء. المحنة المتفاقمة تبدو كأنّها مصطنعة وهي في
كلّ حال تعزّز تعطيل الفكر والعمل وإلغاء المقاصد. حالتنا أشبه
بحالة فلسطين التي استوطنها اليهود بذريعة أنّ الأرض قاحلة
تطغى على أبنائها اللامبالاة والاستسلام لمشيّئة الأقدار
والآخرين. إنعطفنا إلى عالم الموت العقليّ أوّلاً بعد أن انهزمنا
أمام واقع هو من صنيعنا بالدرجة الأولى. ألا ارحمنا أيّها الإله
المتمنطقُ بالاعتدال ارحمنا!

حَوافِز... حَوافِز!

لا يغرب عن الأذهان أنَّ ما يجعل الحياة موحشة مملة هو الحاجة إلى حوافز تدفعنا إلى القيام بأيّ نشاط، إلى حدّ أنّ أولئك الذين لديهم تصوّر للآتي من الأيام لا يكادون يعانون نزاع الموت. وما دامت فيهم رغبة ما تحرّكهم، ترى لديهم مبرر وجود على نقيض أولئك الراضين الواجدين الراحة.

على المرء ألاّ يفقد الرغبات، فهي حوافز قويّة للإبداعيّة والحبّ والعمر المديد. ألاّ ينتفي المعلول بانتفاء علته؟ إنّ كلّ إنسان سويّ يتجاوز مستوى البهائم والنبات، وإنّ بدرجات، بحيث يضيف على حياته معنى ما أو قيمة مضافة. لذا، إنّ سرّ النظام العامّ هو الحوافز، لأنّ الإنسان، عندما ينعم بما يكفي منها، ويبدو في أوج الفلاح، يعنى النظام في داخله أولاً بدقائق تفاصيله من تلقاء نفسه.

وقد اتّضح أنّ الرغبة الشديدة تخفّف من وطأه العوائق. فالموهبة لا تكفي، وهي في حاجة إلى حوافز ومثابرة، أي إلى مزيج من الإيمان والشموخ! حينما كنت شاباً تحرّك في صدري توقّ نهْم إلى التقدير والتقريض. فكان حسبي أنْ أشعر بأنّني "سأريهم ما يمكنني أنْ أفعل"! لولا هذه الحال، ربّما، لما كتبت ما كتبت. يجب ألاّ يدع الكاتب هذا القلق الناري جانبا. والكاتب لا يتقاعد.

إذا صرفنا إذاً العناية إلى الكاتب رأينا أنَّ صيحاته من أعماق قلبه هي أقوى من البركان، يحمل بها على العتاة الطغاة والأحوال المحيطة به حملات قويّة صادقة، ويبرز ما يكتنزه من آيات وطنيّة وحكم سياسيّة ونظريّات علميّة وأدبيّة دقيقة وثيقة، ما يجعله في مصافّ الفلاسفة والمصلحين. يؤلمه دون سواء أو أكثر من سواء ما يراه من مظالم الولاة، وتهافتهم على الرشوة، وانشغالهم عن الإصلاح باللهو والعبث وتبديد أموال الأمّة. فأين وزارات التربية والثقافة والشباب الراقدة، تنشيء في أجيالنا الروح النقديّة البناءة وتثور ثائرتها عند الاقتضاء وتحثّ ناسها على التكاتف والتآلف المُجديين؟

اللحظة الحاضرة!

(فصلُ المقال)

في بلاد النَّاس، ثلاث مراحل في معطوبيّة النَّاس: الانتظار؛ خيبة الظنّ؛ وعيٌ متفاوت للمنتظر الحقيقي! أمّا في دنيا العرب، فالانتظار سيّد الموقف الأوحْد! نقيم في أنفسنا وقلّمًا نقيّم أنفسنا.

نعجز عن رصد اللحظة الحاضرة من حيث هي من المقدّسات

الوجوديّة. ولكن، هل تعبر هذه اللحظة حتى تسمي شحنتها قابلة للشكّ والجدل؟ الحياة استذكار. فماذا عن اللحظة الحاضرة التي تعبر بنا بل نعبر بها عبوراً يتعذّر النفاطه؟ إنّ ما يزعجنا فعلاً ليس أننا لا نسعد أبداً وإنما شعورنا بأنّ السعادة جدّ عابرة.

يظنّ من لا يجيد فنّ الطهو أنّ من الرعونة أن يمضي المرء ساعتين في إعداد وجبة طعام ليلتئمها خلال دقائق معدودة. ولكنّ فنّ الطهو قائم فعلاً عبر وجبات معيّنة وعلى الرغم من تلاشي مفاعيل الطعام المباشرة بعد حين تماماً كرقصة الباليه أو ارتشاف القهوة.

تتألق اللحظة الحاضرة كلمعان صورة فوريّة ثمّ تهجع لتعود فتنفجر في أعماق نفوسنا اللامتناهية ذات يوم، لأنّ الذات بحر لا قياس له ولا أوزان.

يتميّز الإنسان، في ما يتميّز به، بأنّه يعيش في حالة وعي ما للحظة التي هي متهيّئة أبداً وعابرة على الدوام. إنّها متفاوتة الهبوط على قلوبنا المتقلّبة تحديداً. وهكذا، إنّ جلّ ما نطمئنّ إليه هو اللحظة العابرة، ومن الحكمة أن نستخرج من حديقتها المتجدّدة زهور التجربة. ذلك أنّ أطر التجربة قائمة في فجر وعينا البشري.

نستعيد اللحظة الحاضرة بفضل التذكّر وما إليه من تحسّر وندم أو اشتياق وحنين. قد نلقى فيها خلاصنا عبر فلسفات الكائن

الوجودية وليس فلسفات الخبر المُملى علينا! الكائن، وحدَه، ليس مغلقاً. إنه يقابل الجماعة. الجماعة كامنَة فيه وهو ينطلق من ذاته إليها. لا مناقبية إذاً فيه وحدَه ولا سياسة في الأمة وحدَها... وبعد، إنَّ قصص التاريخ لا تُروى للأطفال ليناموا، بل تُروى للكبار ليستيقظوا!

اللحظة العابرة تستقرُّ في مصادرنا ومراجعتنا التي قد تذكر آباءنا في بطون مطوّلاتها. مُطلقاتها في ذواتنا تدوم مهما تقادم عهدا. وشأنها أن تجعلنا نتجاوز ثنائياتنا الساحقة أو أحاديّاتنا الماحقة. فيا أيُّها النافذون، يا أهل كهوفنا، هلاً أنشأتم أجيالنا على المحبّة ليغدو كلُّ منهم آخذاً ومعطياً في الوقت عينه، سائراً على دروب ماضي الأيام الآتية في الولاء التامّ لوجه الأخ في الإنسانية؟

هل للوقت متسعٌ من الوقت؟

عبثاً أبحث عن الساعة الخامسة والعشرين! يا للوقت وقساوته! ما أقصر المدى المرصود لكلِّ عمل نريد أن ننجزه! على الشاشة الصغيرة، عروض ملوّنة تركز على المنافسة والشقاء والعدوانية... وعلى الحبّ الذي قتل! فلا يبقى

أَيُّ حِيزٍ لِأَيِّ شَيْءٍ آخِر. كُلُّ يَوْمٍ يَتَبَيَّنُ أَقْصَرُ مِمَّا يَتَّسِعُ فِيهِ
الوقتُ لَتَتناولُ كُلَّ المواضيعِ المتاحةِ وأقصرُ ممَّا يكفي للقيامِ
بنزهاتٍ نريدها ترويحاً عن النفسِ ومطالعةِ ما يطيِّبُ لنا ورؤيةِ
ما نريد. حتَّى اللصوصِ ليسَ لديهمَ ما يكفي من الوقتِ لاقتِرافِ
أبشعِ الأعمالِ. يكادُ الوقتُ يسأمُ إهدارِ الوقتِ من أجلنا! ذلكَ أنَّ
الزمانَ، بعكسِ المكانِ، يسيرُ في اتجاهٍ واحدٍ ولكنهَ تراكمي.

في بعضِ الأحيان، يأتي كُلُّ هذا من بابِ الخطابةِ التي يُرادُ بها
إرضاءُ خنوعِ العامةِ وتبريرِ تخاذلِ "الخاصَّة". فمخزونُ الأفكارِ
والمعارفِ يوفِّرُ الوقتَ والمالَ معزَّزاً بمعجزاتِ الإنترنتِ وما
إليه. لذا، الوقتُ دخلٌ ثابتٌ ومتوارثٌ والمشكلةُ الحقيقيَّةُ التي
تجابه معظمُ النَّاسِ تكمنُ في كَيْفِيَّةِ التوفيقِ في العيشِ في إطارِ
من توزيعِ عادلٍ للأولويَّاتِ. فالفِكرُ، كَمعاييرِ عملٍ، تأتي قبلَ
الأحداثِ والأحداثِ قبلَ الأشخاصِ. والأشخاصِ، كمواضعِ
اهتمامٍ، تتقدَّمُ على الأحداثِ وهذه تتقدَّمُ على الفِكرِ.

هناكُ متَّسعٌ من الوقتِ على مدارِ اليومِ الواحدِ بشرطِ أنْ نقومَ
بِعملٍ واحدٍ في وقتٍ واحدٍ. ولا وقتٌ يكفينا سنوياً إنْ شئنا أنْ
نقومَ بِعَمَلَيْنِ في الوقتِ عينه. أَوَلَيْسَ التعاملُ معَ رفيقٍ واحدٍ
يخشى اللهَ خيرَ لنا من المتاجرةِ معَ فرقةٍ من المنافقين؟

ينبغي ألاَّ نسأمَ الوقتَ وحتَّى تكاليفُ الحياةِ، ما لمْ نَكُنْ نجهلُ أنَّ
الرحمةَ تسبقُ الوقتَ ولا يسبقها الوقتُ. أليسَ لكلِّ وقتٍ زهورُ

وليس للربيع فقط؟ فلا ندعنّ مظاهر العالم تغرينا وتصدّنا عن هدفنا، ولنصرف همّنا إلى اكتساب الوقت وصقل طبعنا وجعل كل مواطن خفيراً.

متى يحين الوقت فنذكر وجوب ألاّ نلتمس من الوقت أساساً إلاّ ما يأذن به الله ربّ الوقت الذي افتدانا بدخول ابنه زماننا الأرضي؟ أهملنا تاريخنا فأهملنا لأننا لم نستحقّ التاريخ العظيم ولم نكن جديرين برسالتنا الخالدة. لا يسع المرء أن يسيطر على الوقت كما عبر الكلمة والفنّ والحبّ الكبير. الحكمة تتقدّم على الألم. وحياتنا ألمٌ أو كَلَمٌ استحال لدى خيرة الناس ما يسود الآلام. إنّ تجلّيات القلوب في الأزمنة الرديئة هي موضع خلاص هنا وفي المابعد.

مهما توالى الأيام وتعاقبت الأعوام وتتابع الحقب تظلّ حياتنا مشرقة بآيات من هذا الشاعر الفذّ أو ذاك الأديب الأريب. الكلمة وما إليها يبقيان شأنًا كبيرًا وروعةً وجلالاً وستبقى أجيالنا تتغنّى بمفاخر وطني استثنائيّ شدّ العزائم وأيقظ الهمم وأوقد في القلوب الباردة ولو إلى حين أو بعد حين جذوة الحميّة والشجاعة والروح النقدية، فتجلّى دليلاً ساطعاً إلى مواطن الثورة الفكرية التي ستقوى بإذنه تعالى وتتعاظم وتقوّض معاقل البغي والظلم لتقيم على أنقاضها صروح الحقّ والحرية والحياة المثلى.

من يشارك بارئّه في عمليّة الخلق يكسر أطر الزمان والمكان

ليُضفيَ عليهما معنى الجَوْهَرُود. هكذا يتجاوز الزمان المجرَّد في سبيل الديمومة المعيشة والمنطق الجامد في سبيل الفعل الجدلي. هكذا يبلغ هويَّته عبر التغيُّر. إنَّني أعيش الوقت بل الديمومة العابرة ولكنَّ أحكامي حول الوقت أحكام تتجاوز الوقت. الوقت وجوديُّ والبحث فيه خارج الوقت أي جَوْهَرِيّ. أعيش الوقت وأعي الوقت. أنا الوقت ولديَّ الوقت. هذا هو الجَوْهَرُود في المستوى الاجتماعي. شأننا أنْ ننطلق من وخز الضمير أو الأسف والندم فيستحيل عجزنا حريَّةً. هكذا يتجلَّى الوقت بُعدَ التقدُّم الحقيقي.

ليس للساعات قيمة في عمل ما بل القيمة هي للعمل الذي يحقِّقه المرء خلال تلك الساعات.

البساطة والكتابة!

الأفكار تحرُّك ريشة الكاتب فيكتب، هكذا بكلِّ بساطة. وإنَّ أجمل منعطف للعبارات وأروع تحليق في الخطابة والكلام، لا يوجبان كبير عناء عندما يحضر التفكير الواضح الجليُّ كما رآه الفيلسوف ديكارت في القرن السابع عشر. وعندما تبلغ البساطة أوجها تستحيل أناقة ورشاقة، فيخشع المرء لمعانيها الرفيعة المتدفِّقة كالشلال فتَهزُّ منه المشاعر النبيلة.

وكبريات المفاهيم بسيطة، ومعظمها يمكن اختزاله بكلمة واحدة كالأمل والرحمة والواجب والكرامة والعدالة والحرية. الكلمات خلاصة صافية للأفكار النيرة. والكاتب خلق لأداء مهمة قومية جليلة القدر، سلاحها القلم وسيفها لسانه وسراجها عقله المتفتح.

أن نتحدث بأعظم المسائل على نحو سهل ممتع يقيم الدليل الساطع على تمتعنا بثقافة واسعة وسلامة طوية وإن لم يتمكن أحدهم من تدوين فكرة على الجزء الخلفي من بطاقتنا الشخصية يعني أن فكرته ليست واضحة. وبساطة الشخص لا تحول دون تفكيره. إنها فنُّ الفنِّ ومجد التعبير ونور الكلمات. أوليست الحقائق البسيطة اعتاقاً من التجريدات التي قد تكون ضرورية من غير أن تكون كافية؟

نسمع كل يوم سيلاً جارفاً من الأحاديث حول السياسة أو التسويق، وهو بعيد كل البعد عن الحقائق في نسيج حياتنا اليومية. يتصارعون حول أشخاص، ويتناقشون حول أحداث ويتبارزون حول انتماءات وارتعانات، هكذا بلا وثائق دقيقة ولا مسوغ ولا عمق ولا تحديد مفاهيم ثم يمضي كلُّ منهم في سبيله. في أحسن الأحوال ، يقدّون السفسطيين الإغريق فيدأبون في استخدام الأقاويل اللفظية المهلهلة الخالية من الرصانة، والمغالطات في الكلام النائية عن الجدِّ والغارقة في التصنع والتذكي البغيض.

في الخطاب القائم بلا كبير مضمون ما يتنافى وبساطة الكلام الخالي من التعقيد والتضليل وآليات السيطرة على الرأي العام. والشعب يعيش كلَّ يوم تجارب صعبة بتعقيداتها الفوضويَّة نتيجة تأسيس أسياده لمناخات ومقولات ثلاثم نزواتهم ومآربهم الشخصية والإقليمية والدولية. فالأم؟!

متى يستفيقُ وزراؤنا؟

عبرتُ سنون طويلة وكتاباتي الصحافيَّة ما زالت قائمة لنصرة العلم وبثِّ الثقافة وتأييد الأدب الحيِّ الصحيح على الرغم من الأزمات النكراء التي تنتاب بلادنا من أقصاها إلى أقصاها. يعلم الله كم بذلتُ من جهد ومال في سبيل إحياء اللغات - وأهمها لغة الضَّاد - ورفع شأنها بين الناطقين بها. تسلَّمتُ الصفحة الثقافية في صحيفة *Le Réveil* الفرنسيَّة ورضيتُ أن أقوم بأعباء واجبها وجاهدت من أجل تقدُّمها وسعيتُ وراء رقيِّها ... السعي الدائب الذي عرفه لي قرائي باللغة العربيَّة، لم تكن لي غاية فيه سوى خدمة لغتنا وتَحْبِيبها إلى نشئنا وشبابنا الذين أهملوها وانصرفوا تدريجاً إلى الكتابة الهجينة الموتورة، كأنما هي ليست لغة آبائهم وأجدادهم!

عولتُ في رسالتي الثقافية على الله وحده بلا مقابل مادّي في معظم الأحيان. وغير خافٍ أن الأعمال الأدبيّة وما إليها لا تقوم بلا مال ولا تشنّد بسوى التشجيع ولا تسمو وتزدهر إلّا بالتأييد والمناصرة.

المال يبقى إكسير الحياة وعصب فلاحها ورقيّها. فأين وزارات الثقافة والتربية والشباب... لا تقوم بأيّ حراك في سياسة التربية في المدارس والأندية، يتوقّف عليه مستقبل أجيالنا، بدلاً من التلّهي بتسقط مطالب القيمين على تنشئتهم، فيما هذه الوزارات راقدة رقدتها الأخيرة؟! إنّ حالة التقهقر والانحطاط مردها خصوصاً إلى أنّ ثمة "مسؤولين" - لا يُجيبون أو يستجيبون - لا يسعهم ابتداع سياسة تربويّة هادفة. وهل يستطيع الآباء والأمّهات أن يتدبّروا غياب تلك الوزارات؟

الوزراء المعنيّون حقاً أشبه ما يكونون بكاهن إغريقيّ يصغي صامتاً إلى العرّافة "دلفي" أو راهب بوذي يأخذ أجيالنا معه إلى "ياغودة" اعتراف، أو إنسان كبير يستصبح في سُبُل الهدى بأنوار الموهبة وفعل الاجتهاد، فيتجلّى كاتباً لغويّاً مدقّقاً وحبّةً في العربيّة خصوصاً، توفيةً للإفادة من مخزون الثقافة الواسعة. هكذا يقتبس ناسه كنوز المعرفة الفاعلة من أسهل سبيل وأبهاه.

عِظَةُ الْحَاضِرِ مِنَ الْمَاضِي!

في عصور بائدة، شهدت جميع الطوائف في عاصمة العباسيين، أمناً ورخاءً وطمأنينة وراحة بال، حتى إنَّ كثيرين من العلماء كانوا يهربون من الإمبراطورية البيزنطية نفسها إلى بغداد دار السلام، ليقيموا شعائر دينهم وليبحثوا البحث العلمي الحرَّ الجريء. أجل، لست بقائل إنَّ جميع المناسبات بين العلماء تجلّت من باب الصداقة، فهناك أيضاً بجانبها مناسبات التحاسد والشحناء كما نلمس ذلك بين بطلين من أبطال المدينة العربية، أحدهما يُدعى ابن بطلان البغدادي النصراني، والثاني ابن رضوان المصري المسلم.

وإذا درسنا جميع المناقشات التي دارت بينهما، رغم أنَّها تتعدّى في بعض الأحيان حدود النقد العلمي النَّزيه، نجد أنَّ التعصّب ضدَّ طائفة من الطوائف لم يملِ ذاك الجدل الحادّ، بل أملتْه عليهما منافسة المهنة الطبيعِيَّة. أمّا الاضطهاد في سبيل المعتقد الذي لم يبرأ منه العهد العباسي الزاهر أيضاً، فله في زعمي المنحى السياسي أكثر من الديني، وأكثر ما حدث مع الزنادقة المانويين!

هكذا كان أجدادنا في غابر الأزمان، وما أحرانا أن نقبّس من روح تأخيمهم، لتكون لنا نوراً نهتدي به. إذا قابلنا بين همتنا

وهمَّتْهم، وجهودنا وجهودهم، وتشجيع العلماء في عهدهم وكسر
 الهمَّة في عهدنا، رأينا البونَ شاسعاً جداً. الأمم تتقدَّم، أمّا نحن
 فنتأخَّر، ومن يريد الحياة ومجاعة الرقي، عليه أنْ يتقدَّم لا أنْ
 يتأخَّر.

هل تبرز بواذر أمل، عبر وزارات فعلية عابرة للطوائف
 والعائلات تقوم بالإصلاح التربوي-الثقافي المنشود؟ هل يلوح
 الشفق الأحمر في أفقنا المسدود، بهمة رجال رجال - ولا
 نستثني منهم أخوات الرجال! - فتعقب هذا الشفق شمس
 ساطعة؟ لنعلم، مع ذلك، أنَّ كثيراً ممَّا ربحه العالم بالعقل، لا
 يوازي ما خسره بسببه ايضاً. فلنروِّحِ العقل إذا!

لا نجاح بلا شجاعة!

إنْ أخفق رفيق لك مرّة أو مرّات، لا تراك تدينه ريثما ينتقل إلى
 الرفيق الأعلى!

البارحة، جاهدت الجهاد الحسن، وها إنِّي اليوم أتوق إلى
 الانتصار المبين إذ إنَّ كلَّ شيء يمسي سهل المنال. ينبغي لي
 أن أملك رؤية وشجاعة في سبيل الإبداع، وينبغي لي أن أومن

وَأُتْسَلِّحَ بالشَّجَاعَةِ لِإِقَامَةِ الْأَدَلَّةِ عَلَى جَدْوَى مَكَانَتِي فِي الْعَالَمِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ.

مَنْ لَا يَجْرُو عَلَى أَيِّ شَيْءٍ لَا أَمَلُ لَهُ الْبَتَّةَ فِي الْحَيَاةِ. إِنَّ سَفَرَ الْعُبُورِ إِلَى عِظَائِمِ الْأُمُورِ هُوَ الشَّجَاعَةُ أَكْثَرُ مِنَ الْحِكْمَةِ. وَبِرُوزِ إِنْسَانٍ شَجَاعٍ فِي أَعْنَفِ الْمَعَارِكِ لَهُ إِكْلِيلُ النُّصْرِ وَالْغَارِ لَا مُحَالَةٍ. وَعِنْدَمَا نَرَى تِجَارَةً نَاجِحَةً، يَكُونُ أَحَدُهُمْ قَدْ اتَّخَذَ ذَاتَ يَوْمٍ قَرَارًا حَازِمًا حَاسِمًا فِي شَأْنِهَا. أَمَّا صِرَاحُ بَعْضِ الْمَوْتُورِينَ فَهُوَ دَلِيلُ خَوْفٍ لَا شَجَاعَةٍ.

نَتَوَقَّعُ فِي مَجْتَمَعَاتِنَا إِلَى قِيَامِ فَرِيقٍ مِنَ الْأَنْهَامِ فَاقُوا بَقِيَّةَ الْوَرَى بِمَا أَبَدُوهُ مِنْ إِرَادَةٍ مُحْكَمَةٍ، فَضْلًا عَنِ الذِّكَاةِ الْحَادِّ وَالْقَرِيحَةِ الْوَقَّادَةِ. فَبَزَغُوا فِي سَمَاءِ جِبِلِّهِمْ شَمُوسًا وَأَقْمَارًا نَيِّرَةً، مَا يَخْلُدُ أَسْمَاءَهُمْ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ وَيَرْفَعُ لَهُمْ أَعْلَامَ الْفَخْرِ وَالذِّكْرِ الطَّيِّبِ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ.

الشَّجَاعَةُ الَّتِي يَجْسِدُهَا مَسْئُولٌ مُسْتَقِلٌّ هِيَ مَدْخَلٌ إِلَى بِنَاءِ الْإِنْسَانِ وَتَقْدُّمُهُ الْاجْتِمَاعِي. هِمَّةُ الرِّجَالِ تَقْلَعُ الْجِبَالَ. وَهَذِهِ الْهِمَّةُ الْقَعْسَاءُ هِيَ الَّتِي تَجَابِهَ الْعِرَاقِيلَ وَالْعُقَبَاتِ الْقَائِمَةَ فِي وَجْهِ الشَّجْعَانِ الْمُتَوَخِّينِ الْمَثَالِيَّاتِ بِلَا تَهَوُّرٍ. وَهَذِهِ الْمُنْتِطَبَاتُ ثَلَاثَةٌ: الْعَوَارِضُ الطَّبِيعِيَّةُ وَالْمُؤَثَّرَاتُ الْبَشَرِيَّةُ الضَّيْقَةُ وَالْأَهْوَاءُ النَّفْسِيَّةُ الْجَامِحَةُ.

فَعَلَى مَنْ عَزَمَ النُّزُولَ إِلَى مِيدَانِ الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ، وَنَوَى مِصَارَعَةَ

الدهر، أن يهتك الستار عن خفايا هذه العقبات، فيتمكّن من استطلاعها، ويتذرّع بالوسائل الملائمة لرفعها، بل لقلعها. عندها يُفسّح له المجال للسير في سبيل الحياة، فيفوز بالمرام ويصبح فعلاً من خيرة الأنام.

إِعملْ كما لو كنت...

أن نحفظ ماء الوجه بإزاء التغيّر الحتميّ ونتصرّف كعقول حرة في حضرة المصير، إن هو سوى القوة التي لا تقوى عليها أبواب الجحيم! فلنعملْ كما لو كان من المستحيل أن نخفق. وفي نظري أنه إذا ما رمنا نوعيّة ما في الأداء، فلنعملْ أيضاً كما لو كنّا قد حصلنا عليها قبلاً.

إنّ مجرد زعمنا أننا أقوياء شأنه أن يفضي بنا فعلاً إلى أن نتجلّى أقوياء. إذا امتثلنا لفضيلة ما قد يوضح أنها فينا. حتى إن المرض يمكن أن ننظر إليه كدعوة إلى تحوّل شخصي. شأنه أن يكون سفر عبور من موت ذاتنا القديمة إلى ولادة ذاتنا الجديدة. نحن إذاً دوماً في مذاقة الموت والحياة في الوقت عينه. هذا ما يذهب إليه علماء النفس ونحن إذ نقرّ به كتعزية في الحياة، نرجّح أنه قائم حتى يقوم الإنسان بالحق ويرى خالقه وجهاً لوجه.

أين "كبارنا" يعرفون هذه الحقيقة البديهية فيغلبون نفوسهم التي ما زالت تغلبهم حتى الاستعباد. ليتهم يعتقدون كالشُّرفاء العقلاء، ولو بقدر ما، من وطأة المادة والزمان. هكذا تخرج قلوبهم من الموبقات. ولكن، أنى لهم ذلك وهم ليسوا عارفين بالمعنى الروحي؟ هؤلاء الصغار يعبثون بمقدّرات الوطن في حين أن مصمّم موتنا البطيء المتسارع أحياناً هو المعتقد الإقصائي ولو بالوكالة. متى يتجاوز عارفونا الحقيقيون مجال الخطابة والحماسة المتطرّقة ليدخلوا في طور علم الإنسان العارف بكلّ معاني الكلمة؟

الوطن الموحد من أعظم تجلّيات الإيمان والرجاء تكلّلهما المحبّة، فمن له فعلاً؟

بين القبول والاستسلام!

ثمّة التباس ينبغي رفعه بين مفهومي القبول والاستسلام. الاستسلام يشلُّ الرغبة في العمل في حين أن القبول يعتقها إذ يخفّف منها تكاليف الحياة.

لو نطق القبول لقال: "أيتها الحقيقة، هذه هي قدرتي في هذه

اللحظة. وها إنِّي أنظر بعين لا ترفُّ إلى الواقع كما أراه. إلَّا أنِّي سأمدُّ يد العون لما توفّره كلُّ المستجدات. فالإنسان حديث وليته يستطيع أن يتجلّى حديثاً كامل الأوصاف".

ليس من مسافة كبيرة بين القناعة والتراخي. ولكنَّ اللحظة التي نرضى فيها بأقلِّ ممَّا نستحقُّ نحصل بعدها حتى على قدرٍ أقلِّ ممَّا رضىنا به.

ثمّة شعار لدى معظم التجّار والسياسيّين، مفاده ألاّ يرضوا لأنفسهم بالمقبول والمعقول، ما يعني طمعاً بل جشعاً بلا وازع أو رادع. فهل تراهم نأوا الأخلاق عن عين الله الذي يتشدّقون بعبادته ليلَ نهارٍ أو أقلّه عن الضمير الحيّ الذي أمسى، بفضلهم، ضميراً "منفصلاً" أو "مستتراً"؟ إنهم غلاظُ رقابٍ محتكرون متوارثو النفوذ تحت ستار طائفي صفيق. يهيمنون على كلِّ شيء، تبعاً لفتاوى ليست فتاواهم، ما عفا منذ أمد بعيد وباد أهله وانقرضوا في بلاد الناس.

أنّ نحيا في طمأنينة نفس فنقبل الأمور التي نعجز عن تغييرها أو يستحيل وضعها في الميزان، ونتمتّع بالشجاعة الكافية - لا التهور - لتناولها في إطار الممكن والمقبول، تلك هي المسألة. والحكمة لا تتبدّل بتبدّل الزمان والمكان، وهي تسعى كلُّ بشري مهما علا كعبه!

خيبيات الأمل لا تعني فقدان الأمل والرجاء. أمّا العجرفة

والغرور الرائجان عندنا بلا مسوِّغ، فيتسبَّبان بمزيد من العواقب
الوخيمة في ما هو من سعة العيش وحسن الحال، ولا سائل
يسأل ولا مَنْ يحزنون.

قليل قديماً: إن لم يكن لك ما تريد فأرد ما يكون. وأضيف: حتى
يكون لك ما تريد. أمَّا الثبات المذموم على الموبقات والمهلكات،
ولو باسم أعلى القيم والمبادئ، فلا وألف لا! إنَّ عدم التغيُّر -
ولا أقول التغيُّير - يجعل الإنسان يتقهقر لأنَّ الأحوال حتماً إلى
تغيُّر. التغيُّر يحصل من الداخل ومن لا يتغيَّر سيغيَّر أو تقتله
رياح التغيُّير.

الإنقاذ... بالتحريض!

يومَ خلق الله عالماً، جعله مترامي الأطراف ليتَّسع لكلِّ الكائنات
بلا استثناء. لذا، إنَّ أروع ما نورثه ولدًا هو أن ننتج له شقَّ
طريقه في الحياة والوقوف على قدميه يوماً بعد يوم.
فتياتنا ينبغي ألاَّ يَسعينَ حصراً لتجميل مظهرهنَّ وارتداء
الملابس القشبية. فهناك فئة ذات حاجات خاصة شأنهنَّ
مساعدها. والعالم برمَّته في أمسِّ الحاجة إلى قواهنَّ المتمرَّسة
الفاعلة.

ينبغي رفع مستوى المعيشة ليس لدى ذوي المهارات وحسب، بل أيضاً في صفوف مَنْ لديهم ما يقدمونه وما من فرصة متاحة لهم في سبيل تحقيق مراميهم.

بعض عمالقتنا ابتدعوا على أرض الوطن وتحت كلِّ سماء تاريخاً مشرقاً وإن في المستوى الفرديّ أو الحدسيّ. ومن الخطورة أنّ هذا التاريخ قد أمسينا أقزاماً في استحقاقه وإكمال مسيرته. تجاهلناه صغاراً وعجزنا عنه عندما اشتعلت رؤوسنا شيباً. وفي مرحلة الكهولة المتوسطة بتنا أشبه بالشعراء الملاحين نستشفُّ في حادث عَرَضِيٍّ خبراً ساراً كالوميض في العتمة الحالكة، في حين أنّ حفنة من مبدعينا الصامتين يبذون كما كهنة الإغريق يصغون إلى عرّافة "دلفي" أو رهبان بوذيّين يأخذون غلاة الحالمين إلى "پاغودة" اعتراف.

كبار الأرومة اليوم، يتحتمّ عليهم أن يشغلوا ضمائرهم فيقرّرون التغيير ويتوسّلون التنفيذ في إطار من ثورة بيضاء تركز إلى توصيف الحالة و/أو إحالتها، عبر أسلوب إنشائيٍّ و/أو تقريريّ، على ما يبيّث أجيالنا الروح النقديّة البناء استنهاضاً للهمم الراقدة رقدة أهل الكهف.

وبعد، لن يكونَ فاعلو الشرِّ مَنْ سيدمّرون عالمنا كلّهُ، وإنّما هم الذين يرونهم ولا يحركون ساكناً!

بدائل!

البدائل أشبه بأغصان تتفرّع من شجرة الحياة ولكنها غير متساوية. كلّما خبر المرء أعمالاً وشاهد معالم وأحسّ بشعور، بات تقديره أدقّ لشؤون الحياة كفنون التدبير المنزلي وكيفية الوقوع في شباك الحبّ وكنه أبعاد الصداقة. وكلّما واجهته الأقدار أجاد الخيار.

مردّ مخاطر الخيارات ليس ندرتها بل وفرتها. أمّا غياب الخيارات فشأنه أن ينقيّ العقل على أفضل وجه وأنبّل قصد. إنّ السيطرة على انفعالاتنا أساس للنجاح في التعامل مع أندادنا. ففي معزل عن ذهن صافٍ لا يتّسع للمرء أن يتخذ قراراته الحازمة في إطار من العقلانيّة المصفّاة.

لا يزعمنّ إنسان فرد أنّه لم يحدث نفسه البتّة بارتكاب ظلم أو شرّ. ولكن، إذا سلّمنا جدلاً أنّنا على وشك الهبوط إلى "جحيم" مقيم، ألا ترانا نتخذ أقصى درجات الحيطة والحذر تداركاً للكارثة؟ فحذارٍ أيّها السّادة!

الإرادة تصوّرُ فتروّ فقرار فتنفيذ. فعلام لا يني أولئك السّادة يخبطون خبط عشواء فيتصرّفون على غير بصيرة أو تدبّر؟ لننّ بانّ القرار خياراً بين بدائل، فهو، في العمق، صياغة بدائل! هل يعي أصحاب النفوذ عندنا أنّ الحلّ الرئيس دفعاً لهدم الهيكل

أو ما بقي منه، هو فسخ المجال للمبدعين: لا يمكنهم أن يعبدوا المال ويزعموا أنهم يعبدون الله - الخالق والمبدع الأول. سبيلان يتقلمان أمامهم إذا ما هبت رياحهم: أن يكونوا شمعة تنوب لتتير طريق الآخرين أو مجرد مرآة تعكس صورة الشمعة. ليختاروا إذا! بين الحقيقة الساخرة والراحة المتخاذلة، الخيار واضح جلي. والضرورة هنا توفر علينا الحيرة والتردد. وعندما يفقد أهل النفوذ قدرتهم على الخيار، يفقدون إنسانيتهم ويتشيئون.

من لا حاجة بنا إليه، فليرحل في هدوء! لا ريب في أن عالمنا الصغير، في إطار هذه القرية الكونية، لا يضج بحرية الاختيار، ولكن، حذار أن نعيش دومًا عيشة نكره فيها على الاختيار. هل لدى أصحاب النفوذ خيار أن لا يختاروا ما يختارونه؟ هل يبقى خيارهم ثوبًا يرمونه في ختام مسرحية ليسوا حتى أبطالها؟!

أين الوزارات؟!

(٢٠٢٣/٧/١٣)

لدي اعتقاد وثيق بأن وزارات الشباب (؟) والثقافة والتربية، الغائبة عن السمع، يجب أن تسعى لتمحو عن جبهة إنساننا وصمة الحروب والفواجع، وتكون خير وسائط للتعارف

والتفاهم ونشر أُلوية التصافي والاتحاد، عن طريق التربية والعلم والثقافة الجامعة الشاملة المانعة...

الحرب تولد في عقول البشر، فمن الواجب إقامة أسباب الدفاع عن السلام في النفوس أولاً. فإنَّ عدم التفاهم المتبادل بين شعوبنا، باعث إلى الشكِّ وسوء الظنِّ بين النَّاس، وعامل من عوامل تطوُّر الخلاف إلى نزاع مسلَّح. إنَّ سلماً قائماً على عقود اقتصادية وسياسية بين الأفرقاء، يقصِّر عن إدراك انسجام مستمر صادق بين مكوثات مجتمعا. لهذا ينبغي بناء هذا السلم على أسس التضامن الفكري والأدبي بين شعوبنا المشرذمة.

ولا يختلف عاقلان في أنَّ التضامن الفكري والأدبي، رابطة روحية متينة، تجمع القلوب تحت سماء المعرفة، وتبارك المقاصد بيمين المحبة، وتوجّه الألباب إلى الهدف الرفيع الأمل الذي تسعى إليه الفئات المزودة كنوز الفناعة والوداعة والإيمان بالحقِّ الإنساني والعدالة الإلهية.

فالأدب الحقيقي النزيه، والتفكير القويم المصفى، بمثابة نور وضاء، يجلو غياهب هذه الغمرة الكالحة، غمرة اليأس والفوضى والتناحر المعيب. فالمتكالبون على أضرار المادّة كثيرون، والساعون لاغتصاب الحقوق والاستئثار بالطيِّيات أكثر. ولاستئصال شأفة الجشع والأذى، لا بدَّ من قيام دولة أدبية تربوية عادلة، تماماً كما في بلاد النَّاس، تستمدُّ قوتها وسيادتها

من عنصر الولاء والوفاء والطمأنينة الفكرية، وتبني شرائعها وقوانينها على قواعد القيم الروحية والمعنوية، وتمارس دستورهما في كنف الأخوة الصادقة والوعي الإنساني والمثل العليا. فمن يكفر بهذه المثل، يكفر بحقه الذاتي، وبحقوق أخوانه وأخذانه، ويسيء إلى بيئته ومجتمعه، إساءة قد تؤثر تأثيراً سلبياً في تطور تلك البيئة وذاك المجتمع.

يبدو أنّ الوزارات (غير) المعنية المشار إليها سعيده بامتداد مرحلة الشغور الرئاسي لكي لا تقوم بأية ثورة (ضرورية!) في الذهنية المحلية، وقد حاول الناس في بلاد الناس، منذ أمد بعيد، أن يكافحوا، أقله في عقر دارهم، الظلم ويقرؤوا السلم، وصيانة الحرية، عبر مساعي حكومات فعلية فاعلة!

يوم يستفيق بعض أهل النفوذ عندنا من سباتهم العميق المتوارث، يليق بهم وبنا أن نتباهى بسمو منزلتنا وجلال أثرنا. فهل تراهم يستفيقون؟!

المعلم أولاً!

على الرغم من الأزمات المالية والاقتصادية الخانقة، نسأل: كيف يُعقل أن يكون هدف الإنسان وقبلته، وخصوصاً في

صفوف "الكبار"؟ فالثراء لا يمنح سعادة ولا خلوداً. التاريخ يخلد الشهداء والعظماء ورجال الفكر فقط، والسعادة ليست باكتناز المال، فقد يكون الفقير بقناعته أسعد من الغني بجشعه، والمتعبد في تقواه قد يتجلى أوفر سعادة من الغني بمُجونته، وصاحب الكوخ أكثر رضا من الغني بقصره، والراهبة في ديرها وعفتها وتضحياتها هي أكثر سعادة من الغنيَّة بأنانيَّتها واستهتارها. فالسعادة نسبيَّة تختلف من فرد إلى آخر، وهي تكمن في التوفيق بينها وبين الفضيلة.

ليست الحياة تبادل ماديَّات شبه متساوية القيمة أو القدر، وإنَّما هي عمل صامت متجرّد نزيه، واندفاع في ميدان الواجب في رغبة صادقة وإخلاص موصول. والعمل المخلص الصامت أساس المجتمع وتطوره، وهو لا يقابل بقدر. والمعلم الذي من المفترض أنَّه أساس كلِّ مجتمع وأساس تطوُّره، لا يبادل بالانتقاص من حقوقه الأوليَّة. إنَّه باني الأسرة وخالق الوطن وموجد أبطاله ومشجّع رجاله وحارس الفضيلة، لأنَّه مدخل أساسي إلى مدارس الحياة. فمن عصير فكره تستمدُّ الأجيال عناصر النمو وتستجلي صور الطهارة، ومن بين شفتيه تلتقط نغمات الرقة وآيات الصدق والإباءة، وعلى ساعده تتلقَّى مبادئ التربية المدنيَّة والأخلاقيَّة وتتروّد وسائل الفوز وأسباب النجاح. ولطالما طالبنا الوزارات المعنيَّة والعاطلة من العمل، بإدراج

هاتين التربيّتين المتفاعلتين في مناهجنا، ولم تحرك ساكناً! الاستاذ الجامعي خصوصاً يجمع ولا يفرّق. وشأنه أن يجنبنا فساد الفاسدين المتوارثين سلطة ليست سلطتهم. فلندعمه وندعم المعلمين عموماً قبل فوات الأوان.

وبعد، إنّ المشكلة الأساسية في مجتمعنا، هي مشكلة ثقة، حتى تلك التي ينبغي أن توثّق اللبناني بوطنه دون سواه. والثقة عندنا مرتبطة حصراً بالماديات. وقد اعتنقت مجتمعات قبلنا من هذه المشكلة ولو بدرجات. وقديماً، لم يفتن المال بعض البشر المميّزين... فالفيلسوف سبينوزا مثلاً كان له رصيد كبير من المثل والأخلاق... فأين نحن منه؟

أين مثقفونا؟

لا يتجلّى المتعلّم مثقّقاً ما لم يوظّف معرفته في واقع الحال. لا يتجلّى المثقّف عاملاً إطفائياً بل نوراً يحرك جسد التاريخ بعد أن يكون أثار الروح النقدية في أذهان ناسه. لا يجترح المعجزات ولا الكرامات. فهو ليس إلهاً بل كائناً واقعياً يرفعك إلى علّ. يعايش آلام الناس ولكنه يتميّز منهم، فيشخص أسباب الآلام ويعمل مبضعه في الجراحات التي يكتنون بها.

ليس المتَّق كائناً غريباً أو هامشياً. لا يتعالى بكبريائه بل يتسامى بعزَّته. لا يستكبر على العامَّة ولا يستصغر نفسه أمام السلطان. تترتَّب على المتَّق اليقظة والانتباه وعدم الاستسلام لأنصاف الحلول والحقائق، والتحرُّك بعيداً عن الأدلَّة والاستلاب الفكريِّ وإغراءات السلطة وغواياتها. أن يلتزم حصراً أفكاره ولو دفع حياته ثمناً لالتزامه، ذلك هو التحديُّ الرئيس أمام المتَّق. وهذا ما أودى بحياة عظيم كسقراط أو الحلاج.

يا طبيب طبَّب نفسك! وعلبك نفسك فتش عن معايها وإن كنتَ طبيباً حاذقاً حقاً، فداو نفسك قبل أن تداوي النَّاس. عندنا أناسٌ في أمسِّ الحاجة إلى العلاج النفسيِّ بينما يتصدَّرون المشهد الثقافيَّ بحجَّة أنهم يملكون مفاتيح الحلول ويستحذون على كلِّ موهبة.

نكتبُنا في "تُخبُّتنا"! أمَّا ما نريده ونعمل له منذ أمد بعيد، ونبذل جهدنا في سبيله، هو إنتاج ثقافة وطنية جادَّة مُبدعة. نقاوم الثقافات الدخيلة على غير طائل والمعادية والمتحلِّلة القائمة على التبعية للفكر المضادَّ للديمقراطية، ثقافات الجريمة والإرهاب والتصلُّ من المسؤولية وإهمال واجب المواطنة.

المالُ وما إليه!

الهيمنة الأقوى والسطوة الأقسى عندنا، ما زالت سلاطين ثلاثة

هم: المال والجمال وأمر واقع يفرض نفسه من الداخل والخارج على السَّوء. فهم الحُكَّام المستبدون الذين لا مردَّ لأمرهم، يتحكَّمون في تصرُّفات النَّاس وأموارهم، كبيرهم وصغيرهم، رئيسهم ومرؤوسهم، فقيرهم وغنيهم، جاهلهم وعالمهم، مؤمنهم وملحدهم، ولا يكاد أحد يفلت من بطشهم وسطوتهم. لننوق هنا عند المال!

يسعى أغنياؤنا قبل فقرائنا إلى المال، يدأبون ليلَ نهارٍ في سبيل جمعه، يركضون ويلهثون وراءه، يخدعون ويغشون، يخونون الصديق ويغدرّون بالقریب في سبيل الحصول عليه، يسرقون، يحتالون، يهرَّبون المخدَّرات ولو كان الضحيَّة مواطنوهم، يتاجرون بالأسلحة ولو فنيت الشعوب، يزحفون وراءه مطَّأطي الرؤوس والهلمات كأنَّه إلهٌ وثنيٌّ يضحُّون من أجله بكلِّ شيء، بالمبادئ والكرامة والوطنية والناس كافة!

ولا ينجو من بطش هذا الحاكم الطاغية لا ذوو القربى ولا ذوو الأرحام، فهذا يقتل جدَّته ليستولي على مالها وذاك يسمُّ أباه ليرث ثروته، وهذه تطرد أباه بعد أن تستولي على ماله وتلك تتأمر على حياة أمِّها لتلتهم ذهبها ونفائسها. وإذا أردت المزيد من الأمثلة، عليك بالصحف والمجلات فهي مملوءة بمثل هذه القصص والمآسي.

والساهرّون على العدل والقانون ليسوا في منجى من جبروت

المال أيضاً. فكم من محامٍ باع الحقَّ حين رأى بريق الذهب،
وكم من قاضٍ حكم بالباطل في سبيل حفنة من المال مطبّقين
المثل القائل: "تغرق الحقيقة حين يعوم الذهب". وكم من رجل
دين أعرض عن إله السماء وحالف سلطان الأرض الأوّل وهو
المال!

فأين مروءة أجداننا وشيمهم الكريمة؟ ولم لا يطّلع شعبنا على
ما يقوله بعض العقلاء الغربيّين وما يمارسونه من عادات
وتقاليد نبيلة شريفة؟

بين الخلق والإبداع!

خلق الله البهيمة لتبقى على حالها، وخلق الإنسان لينمو
ويتطوّر. خلقهما من عدم، وراح الإنسان يحاول مزاملة الله في
أنّه يُبدع أيّ أنّه يخلق وإنّما انطلاقاً من شيء ما. فلندع، إذاً،
المرأة تنمّي قدراتها الذاتية لتبدع ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.
بلا معاناة، لا يعيد الإنسان النظر في كيانه، لأنّه المنحوتة
والنحات معاً. وكلُّ إنسان يختزن ما لدى السلف والخلف ولو
بدرجات. يرث ماضيه ويبتدع مستقبه. تصوغ حياتنا على مرّ
الزمان ونصوغ أنفسنا، حتى الممات. خياراتنا مسؤوليتنا.

حياة الإنسان يوطّرها المحيط والوراثة وتقلّبات المناخ، ولكن، سرعان ما يسيّر حياته وكأنّه يقول: أنا الآن كذلك وهكذا ينبغي أن أكون غداً. الأمّ تلد طفلها ولا تتي أيضاً تجدّد كيانها. أمرٌ وحيد يمكننا أن نطمئنّ إلى تحوّلِه وتبدّلِه، وهو ذواتنا.

الإنسان أضعف الكائنات في تأثيره ببيئته، ولكنه كائن مبدع أولاً. الألباس يقطع الألباس... ولكن، لا شيء يقطع اندفاع الإنسان الحيويّ. قوّته في طواعيّته وإبداعيّته. أُلقيَ به أينما أردت، تشرّع أمامه أبواب الإبداع والتجدّد الموصول. طموحه أولاً أن يبدو عظيماً في عيني نفسه وأمام محكمة ضميره. أمّا إذا خلُق شاعراً فحقّ له ما لا يحقّ لغيره. وهناك تمايز الأبطال والأولياء حين يثورون. أمّا إذا فانت البطولة والإبداع الأحياء، فلنبحث عنهما في ضرائح شهداء الواجب والمبدعين، لأنّ فيهم من الحياة ما بخل به الأحياء. أبطال البشريّة ومبدعوها أئمّة في الأئمّة وقادة عظيمو النفوذ في الألفة والازدهار، لا متحكّمون فيها تحكّم الطغاة الفاسدين. وقى الله عباده شرّهم!

حلقة مفرّغة!

تبذل الحكومات الرشيدة كثيراً من الجهد والمال، في سبيل تنقيف أبنائها، والترفيه عنهم، وتوفير الرّاحة والطمأنينة لهم،

وإبعادهم عن كلِّ ما من شأنه أنْ يعكّر صفاء عيشتهم، أو يسيء إلى سمعتهم، أو يخيّب آمالهم وأمانيتهم في المستقبل المنشود. الوزراء مجردُ خدَمَة يحملون أوزار الشعب وليس نقيض ذلك. الحكومات الراقية الواعية، بمثابة أمِّ عاقلة رؤوم، تجنّب فلذات كبدها الجهل، وتدفع عنهم الضرر والأذى، وتحرص على إظهارهم بمظهر أنيق جميل، يثير من حولهم القُدْر والإعجاب. والواقفون على تواريخ انبعاث الأمم والشعوب، يعلمون أنَّ رقي الشعب مَنوط برقيِّ حكّامه، وأنَّ راحتته ورفاهيته، وقفٌ على ما يسنون من أنظمة، وما يصدرون من قوانين ومراسيم، تسودها الحكمة والعدالة وروح الإصلاح، وتُراعى فيها حقوق الفرد والمجموع معاً.

مما تقدّم، لا بدّ من قيام وزارات أساسيّة فعليّة فاعلة تتناول شؤون الثقافة والتربية في جدّيّة. إنّها وزارات سياديّة بامتياز لو يدرون، تتوقّف عليها سيرورة الأوطان وصيرورتها. فلم ندع شعباً لا يتمتع، على الرغم من علوّ كعبه أحياناً علماً ومعرفةً، بأيّة حريّة أو كرامة ناجزة؟ كيف تأتّى لشبابنا الذين لا يُبرّزون إلّا خارج الحدود، أن يتشرذموا على أرض الوطن في اتجاهاته الأساسيّة، ما يجعل مقوّمات النّقْدُم والرقيّ تفترض مزيداً من الجِدِّ والإخلاص والتضحية في أداء الواجب الوطني والإنساني الشامل؟ المصلحة الذاتيّة والطائفية الضيقة، ينبغي أن تتطفئ

كفّاعة الصابون، وأن تضمحلّ كالهباء المنثور، تجاه مصلحة الأمة جمعاء. فمتى نستيقظ من رقدة امتدّت طويلاً، ونسير معاً في ركب الإصلاح الذهني أولاً، ونثب إلى قمم المجد الوضّاء، بهمة الليث، وطموح النسر، وعقيدة المؤمن بحقه وكرامته؟ فالتطوّر يوجب الوثوب بأقدام الجبابة، ويقضي بالسموّ إلى مراقي العزّة والحضارة الباذخة.

بعيداً عن التوارث الإقطاعيّ و/أو الطائفيّ البغيض، شأن بلادنا أن تنعم بحضارة تتجلّى ينبوع كثير من الحضارات. فالأمّ يدبّ في دنيانا الشقاق والفوضى بذريعة أن التاريخ يعيد نفسه إلى ما لا نهاية له؟

مع المرأة حتى الحياة!

إلى روح حبيبتي الرائدة ماري سالم الخوري

أيّاً كان مجد رجالات السياسة، فحصة الأسد فيه للنساء. وهناك بطلة كامنة في صميم كل امرأة.

ما زالت المرأة في مجتمعا أشبه ببركان خامد. بفضلها قد تتبدّل خرائط طريق وتنتصب جبال شامخة من التطلّع والاستشراف. وإنك لتشهد منهنّ مفاخر باقية أبد الدهور. يتساوين بالرجال في معزل عن كل تطابق مميت بالضرورة.

قد تعترض طريق المرأة صعوبات كأداء في حلّها وترحالها، ولكنّ هذا بمثابة حافز إضافي لمزيد من الارتقاء والتألق.

تحمل المرأة العالم بل تصنعه، وما من رجل عظيم لم تتجنّبه أمّ عظيمة. تعطي المرأة المنابر وتنزل الساحات، فيتجلّى نثرها شعراً، ولفظها سحراً وبيانها آيات خالديات فيها سموٌ وإشراق، وفيها موسيقى تصدر عن ناي علوي من صنع السماء وتعبير زرقاق ينعش الفؤاد ويستنهض الهمم، ونغم حنجرة ذهبية ساحرة المنطق خلّابة الصوت. تملك أحياناً ناصية الكلمة، وتُخضع لإرادتها أجمل الأفكار وأروع المعاني وأبعد الأخيلة المتغلغلة في عالم الكواكب.

المرأة نجم كلّ ملتقى في سماء الابتكار والنغم الحنون الذي يدخل القلوب فيطربها ويثير فيها إعجاباً لا تمحوه الأيام. ليست فاترة أو باردة ولا دمها دم الزواحف وليس كلامها مجامر انطفأت نارها بل هو حارٌّ مندفع ملتزم ينشد الحق، وتحت غلالة من لطف أصيل ودمائة موصولة كثيراً ما يتلظى شوقها إلى الأفضل.

فإلى المناصب العليا يا صاحبات الفم الذهبيّ والمبدعات في عالمي البلاغة والصياغة البيانيّة وملهيات أحاسيس الجماهير. أراكنّ تقفّن على الشأن العام حياتكنّ وتعطينّ نسغ شبابكنّ وملكاتكنّ على السواء.

ثمر عمل النساء الرائدات مبارك لأنه ابن الجهد يُدعى، وله اتجاه، به يهتدين ومعه، نقلةً نقلةً، يسرنَ مكرّسات سهر الليالي ونور العيون في سبيل مُثل الإنسانية وتقدّم المجتمع ونصرة وطننا المنسي ووحدته... تبني المرأة العالم المنشود على أساس من المدينة الفاضلة وتشيد رؤاها قصورًا أحجارها مطامح الناس إلى غدٍ أفضل.

في التقليد!

ثمّة بونٌ شاسعٌ بين تقليد امرئ صالح وتزييف صورته. التقليد الأعمى واقع الكسالى المتخاذلين، وهو أمر عادي؛ أمّا التناغم المتجدّد فدينٌ المبدعين، وهو شأن فوّطبيعي عظيم. فحذارٍ من رِقّ التقليد غير المستحبّ وتبعيّة التشبّه الموصول.

التقليد طبعيّ في البشر خصوصاً لدى حديثي السنّ. ومن عبثيّة السلوك البشري محاولة تقليد من نعجز عن التشبّه بهم. وهناك أناس يقتفون سواهم بلا تأمل أو نظر. هذا ما يلوذ به الأتباع والأذئاب والزاحفين وراء الدُرَجَة.

الأولى بنا أن نتلافى الحسد بل أن نتعلّم بعضنا من أخطاء بعضنا الآخر. الإنسان الحذر يفيد من تجاربه الشخصية أمّا الحكيم فيفيد من تجارب الآخرين.

أبناءً شعوبنا مضحكون. يرتاحون إلى معاشرة "الآخرين" وتقليدهم. يعيشون على منوالهم. يصنعون ويداهنون... ثمَّ يقضي الأمر إلى الأبد.

فليتنا نبحث عن الحقيقة لأنها لا تبحث عنا، ولا نعول حصرًا على "تقدير" الناس. ليتنا نعيد النظر في بعض أمثالنا الشعبيَّة، ونتوقَّف عند الإشكاليَّات الحيائيَّة الكبرى كإشكاليَّة خلود النفس وفنائها.

لم أتشاءم يومًا، فالشكُّ المحرِّر وحده ديدني بإزاء عبوديَّة الطبيعة والآلة والمنبسطات البشريَّة. فما من إنسان في وسعه الافتخار بعدم الاستعباد لأحد أو لأي شيء. إذ من منّا لم يلقَ بين معاشريه أناسًا طُبعوا على الشراسة والشكاسة، أناسًا لا تتحلُّ أربنتهم، ولا تلين صفاتهم، وكأنهم قدنوا من جلمود. لنحاول تجنب انتقاداتهم الجارحة ونلقنهم الروح النقديَّة البناءة.

كَلِيلَة وَدِمْنَة!

لَفَتَنِي تَقْرِيط قَرَّائِي لِأَسْلُوبِي الرَّمْزِي... فَمَضَيْتُ أُعِيدُ قِرَاءَةَ بَعْضِ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ كَلِيلَةِ وَدِمْنَةِ الَّذِي يَعْتَمِدُ أَيْضًا الْإِيحَاءَ وَالتَّمْلِيحَ بِالرَّمُوزِ الْمُنْبَثِقَةِ مِنَ الصُّورِ الْحَسِّيَّةِ وَالْأَسَاطِيرِ. فِي كَلِيلَةِ وَدِمْنَةِ رَمُوزٍ لِحَالَةٍ مَا زَالَتْ قَائِمَةً فِي عَالَمٍ يَعِجُّ

بالمناعب والمصاعب والأرزاء، والحياة فيه تبدو أشبه بمنام يتلوه منام حتى منام لا يقظة منه. إنه كتاب جليل الفائدة لنشئنا، ملئاً بالأمثلة وقُصد من وصفه تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق الفاسدة أو المنحرفة، والإرشاد إلى مداراة الناس والوقوف على ما طُبِعوا عليه من صفات. ينطوي خصوصاً على ما نفتقر إليه نحن من جهة الصدق والصداقة. ويُعتبر ناقله عن اللغة الفهلوية ابن المقفع في طليعة كتّاب العربية وأئمة النثر والطفهم أسلوباً وأعلامهم كعباً في البلاغة والبيان المشرق النّصيد.

في ذلك السّقر النفيس توصيف لحالة الإنسان وما يعترضه من آلام ممزوجة ببعض الآمال التي تنسيه مآسيه إلى أن يفاجئه الأجل. إنه مرجع برسم أبنائنا الذين كُتب عليهم أن يبصروا الوجود ويتعرّضوا للمشقّات فيقاومونها بقوة وثبات لينتصروا عليها حتى تنطفئ آخر شمعة من شموع حياتهم.

في الكتاب إيجاز غير مُخلّ، ليتنا نتّبعه في أنديتنا، والعاقل العاقل من بات من الدنيا على حذر. وضع على ألسنة البهائم والطير تعاليم أخلاقية موجهة أولاً إلى الحكّام والرعاة. إنه ينطوي على قانون كامل لتصرّفهم وهو خير مثال للثقافة الواسعة والفكر الصّافي العميق والأسلوب العالي الرصين. فيه نبل الخلق وكرمه واتساع العقل وقوّة اللسان. فيا ليتهم يعتمدونه كما اعتمد سوانا روح القوانين لمونتيسكيو!

بين العلم والمعتقد !

ثَمَّةٌ مَنْ يزعم أَنَّ العلم والمعتقد على طرفي نقيض، وأنَّ العالم أَمسى أكثر وأكثر عقلانيَّةً و"واقعيَّةً". ولكن، هل من مجال لإنكار تنزيل كلام الله على النبي العربي أو تجسُّد الناصري في زمان ومكان محدَّدين؟ هل من مجال لتجاهل دور الدين في مأسسة الاكتشافات والاختراعات؟ إنَّ إقامة جسر عبور في مدينة ما كثيرًا ما يُراعى جانب اللقاء الإنساني بين أحيائها. وقوننة الإجهاض أو القتل الرحيم في حاجة إلى دعم وجداني.

ثَمَّةٌ مَنْ يفصل بين الميدانين، لأنَّ العلم يتناول الواقع فيما الدين يتحدث بالقيم. ولكن، مَنْ ذا الذي يسعه التغاضي عن الجانب العمليِّ في الأديان؟

هل يُعقل ألاَّ يُصغي متديّنٌ ما إلى نداء الفقراء وعويلهم المحزن وأنَّ يشيخَ عن جراح أحدثتها فيهم نصال الرزايا والاحتكار المعيب؟ ألا يترتّب على النَّاسك المؤمن أنْ يسير بجوانب أكواخ المساكين وبيوتهم الحقيمة، ويسمع الأمّهات يعلنن أطفالهنَّ تعليلًا، وينشدنَ لهم نغمات تنسيهم مضض الجوع ولو قليلًا، وتساعدنهم على النوم ولو إلى حين؟ هل يمتنع المؤمن المقتدر عن التحديق إلى الأطفال والإنصات إلى أناتهم الخافتة الموجهة، ولا يرى أنَّه ربّما حرّمهم النعمة، وسلبهم لقماتهم وراحتهم، وجعلهم هدفًا لسهام الموت المروع؟...

هل يتقاعس إنسان فردٌ عن التَّحديق إلى الأمَّهات البائسات فلا يلمح الكآبة الخرساء مرتسمةً على وجوههنَّ الشاحبة المتظاهرة بالسكينة والاستسلام، ولا ينسى أنْ ينقل بصره إلى الآباء المساكين الذين يكدحون في سبيل القوت، والقوت بين أشداق ذئاب المجتمع الكاسرة الذين يتلكأون عن واجباتهم الإنسانيَّة والإيمانيَّة بحجَّة أنْ ليس لديهم متَّسع الوقت لتحريك ضميرهم وتفعيل كرم أخلاقهم وتأوين أريحيتهم.

من مَظالِمِ الدَّهر!

في هذه المعمرة المروعة، يقضي في كلِّ يوم على أرضنا والجوار، عدد من الضحايا، راضين مبتسمين أحياناً، متيقِّنين أنَّهم يقدِّمون أجسادهم، ويبدلون نفوسهم، على مذبح الواجب والشرف... بيدَ أنَّ هناك أيضاً رجالاً يموتون مِيتةً مؤلمةً، وأطفالاً يئنُّون ويتوجَّعون بين براثن الفاقة، ونساء تُغمد في صدورهنَّ حراب البؤس والأحزان إلى أن تودي بهنَّ. وهكذا تستسلم هذه الفئة البريئة، إلى أحكام الحمام، وتتطرح جثثاً باردة تحت أقدام الأنانيِّين والمحتكرين وأرباب الجشع والطمع.

أيُّها الأنانيُّ الظالم ممَّن هم في صفوف النافذين المتسبِّبين بأمثال

هذين المصيرين القاتلين، أراك تسير إلى المجتمعات، وإلى أماكن العبادة والصلاة - التي هي أساساً صلات سويّة بالله والآخرين - متظاهراً بالتقوى وحبّ الخير والإحسان، في حين ينهش الاستئثار قلبك، ويتلهّى بما بقي من ضميرك...

أيّها المحتكر في ثياب الحمل، والذي تلاشت من فؤاده الرحمة والإشفاق، وأعمت الأنانية عينيه عن النظر إلى إخوانه البائسين، وسدّت أذنيه عن سماع صراخ الجائعين المُتَقَلِّبين على جمر الطّوى والحرمان، ترفعاً منهم عن ذلّ السؤال، أما كفّك ما جمعته بعرق العامل ودم الفقير؟ أما أرهقت كاهليك أعباء أموال غنمتها بالغشّ والخداع وتعذيب الأرامل والأيتام، حتى تدأب في الإمعان في جمع المال وما إليه بغير الطرق المشروعة؟

تداركُ أمرك أيّها النّافذ المحتكر، واقلع عن نهماك، واشملْ إخوانك البشر بالرفق والحنان، إرحم الإنسانية في عزّك وجاهك، لترحمك يومَ شقائك... رُدّ إلى ضميرك الحياة، يرجع إلى قلبك العطف والشعور، وتحرّر من عبوديّة الطمع، وبشرْ برسالة الإخاء والرحمة، وقم إلى العمل بضمير حيّ نزيه، واذكر دائماً أنّ الدهر يومان، يومٌ لك ويومٌ عليك.

أهمية التركيز!

إنَّ ملكة التركيز وحسن استخدام الوقت هما كلُّ ما في الحياة من فائدة تُرتجى. عندما أتوانى في ما أسعى إليه وأنظر إلى الوراء وجانبًا، بدلاً من أن أحافظ على عينيَّ تنظران إلى ما هو أمامهما مباشرة، أشعر ببرودة في القلب تجعلني أنقاد إلى أيِّ مكان ما خلا الهدف المنشود.

ما إن يركّز المرء على موضوع ما حتى يغيب كلُّ مؤثّر دخيل. هنا تكمن إجادته ولو نسبيّة ما دام قد جيّش كلَّ العناصر العائدة إلى الموضوع. أمّا ذاك الذي لا يركّز على موضوع ما، فيقوده تصرّفه المشتّت إلى المؤخّرة. في الإجابة طبعًا درجات، وإنَّ أيَّ اكتشاف ذا قيمة يفترض انتباهًا متأنّيًا. مَنْ لا يُعمل طاقته التركيزيّة لا هدوء يعرفه ولا اطمئنان يركن إليه.

في سرِّ التركيز سرُّ اكتشاف الذات واحترامها. يلجّ الإنسان في عوالم نفسه فيكتشف إمكاناته الشخصيّة وما ينبغي بذله بما يتلاءم مع الإمكانيات في مواجهة التحدّيات.

هناك، وطنيًا، حاجة إلى تركيز على مسألة الزواج غير قابلة للانفصام بين المذاهب والأزواج والأفرقاء عمومًا. المسألة هي مسألة ترتيب البيت الداخلي المتعدّد الأوجه عبر حوار لا ريب في صعوبته مثلما كل حوار جدّي جامع شامل ومانع. المسألة

مسألة "زواج" وليس مجرد مغازلة قد يملئها حبُّ التسلُّط من فريق على فريق. هكذا نمسي أنصار أنبيائنا ورسلانا وأوليائنا مع الأخذ في الاعتبار كون "السياسة فن الممكن" في كلِّ وطن يريد أن يبقى في زمان النَّاس. ولكن، ماذا تُرانا نفعل والطفالة الفكرية والعملية سيِّدة الموقف؟

الثقة بالنفس والغرور!

كثيراً ما يُفسد الغرور والاعتداد بالنفس مصداقيةَ أعظم العاقرة. أمَّا التواضع فيتجلَّى مستحبّاً بمجرد تأثيره الإيجابيِّ فينا. وهو يخلق فينا ملكة متنامية لاختبار حميميٍّ مع الأرض وبارئها. الثقة بالنفس بعيدة عن الغرور بُعدَ القناعة عن جشع التجَّار الذين يتاجرون في سلع من إنتاج غيرهم في سبيل كسب سهل وسريع.

الغرور أشبه بدرع يحاول صاحبها أن يحمي بها مساحات مترامية الأطراف. إنَّه في بشاعة إهمال الذات. في بلاد النَّاس، لا يُقرُّ لمن يتميَّزون بذكائهم الحادَّ بقدرهم من قبل محيطهم ما لم يظهروا ولو إلى حدٍّ ما أنَّهم ليسوا فعلاً على هذا القدر من الذكاء. وهل يكون الاعتزاز غير تقدير الذات في عمق أعماق

الذات؟ المفارقة أنَّ المصابين بالغرور قلَّما يتحدَّثون عن الآخرين فنرى أنَّهم يتركونهم وشأنهم، وقد يناصبونهم الحقد والكراهية.

المصاب بالغرور السَّافر يعرف تماماً متى تأدَّى بجرحه القاتل. يعرِّج خارج ميدانه فيثير الشفقة في معزل عن كلِّ إمكان إخفاء وتكرُّر، في حين أنَّ المعتزَّ بنفسه قد يحمل رايته حتى النهاية. وما إنَّ يغادر المعتزُّ ميداناً حتى ينشر رايته في ميدان آخر. من الصواب أنَّ يعتزَّ المرء بنفسه بالحري في قرارة نفسه تماماً كما أنَّ من السخافة أنَّ يبالغ في اعتزازه بنفسه أمام الآخرين. وأرى أنَّ الأولى بكبار مسؤولينا ألاَّ يستطيعوا الظهور بمظهر تتعُّمهم بشعبيَّة أو محبوبية قصوى مخافة أنَّ يخسروا معارضي نهجهم نهائياً ولأنَّ السياسة الفضلى، فضلاً عن أنَّها حبٌّ ورعاية، هي تنظيم محكم وقوانين صارمة. ليلطَّفوا حتى آراءهم التي قد تكون تصلَّبت على مرِّ الزمان فيركِّزوا على إخلاصهم لكلِّ المواطنين، وكذلك صوابهم ومدى عدلهم. هكذا، ترى النَّاس يقصدونهم حتى إذا تخلَّى عنهم أقرب المقربين إليهم. ذلك أنَّهم يثابرون على جهادهم وحفظ أمانتهم. يتلفَّظون بكلام هادئ هادٍ حتى وسط الجحيم التي يعيشون فيها. يسرُّ النَّاس من نظرهم الثاقبة في هذا المضمار أو ذاك. ونظرهم إلى النَّاس هي نظرة تنفذ إلى أعماق القلوب. هكذا يرحمهم الله رحمة واسعة في يوم الحساب.

أين شجاعتكم؟

الشجاعة صفة عالية، ترفع صاحبها وتحيطه بهالة وضآة من القَدْر والإعجاب، لا سيّما إذا تحلّى بالشجاعة الوطنية التي تدفعه إلى خدمة أمّته وبلاده، خدمة صادقة فعّالة، تعود على مواطنيه بالخير والسعادة.

الشجاعة أوّل الصفات البشريّة لأنها تضمن أخواتها. فالإنسان الشُّجاع نادراً ما يكون قاسياً أو أنانياً. الشجاعة تجعل جميع القيم متماسكة. ليست إحدى القيم وحسب وإنما هي شكل كل منها في كلّ لحظة من اللحظات. إنّها السِّلْم التي تترقّى عليها سائر القيم. بلا شجاعة لا فرصة سانحة لنا لاستخدام أيّ من القيم الأخرى.

إنّ خسرت مالك خسرت شيئاً ما. إنّ خسرت الكرامة خسرت أكثر. وإنّ خسرت الشجاعة خسرت كلّ شيء. من أبرز ميزات الشُّجاع أن يتسلّح بإرادة قويّة، تُبعده عن التردّد إلّا في الخيارات الكبرى، وتوحي إليه أن يُقدّم على عظام الأمور، من غير أن يحسب حساباً كبيراً لما قد يعترضه من عقبات وعثرات وأخطار.

الشجاعة فضيلة تتّسم بها القلوبُ الكبيرة، والنفوس الحرة الأبيّة، التي تناهض الظلم، وتهبّ لنصرة الحقّ والعدالة والفضائل الإنسانية الجليلة.

ونحن لا نصف امرأً بالشجاعة، ولا سيّما الإنسان المسؤول، إلاّ بعد أن تتوفر فيه شروط العزّة والبسالة والاندفاع في سبيل الواجب الوطني والواجب الإنساني، أو بعد أن يُبدي عملاً يدلّ على التفاني والتضحية.

يبدّ أن الشجاعة تحتاج إلى التفكير وتقدير الأمور حقّ قدرها... فالروح ودیعة غالية، ومن الجنون أن تُبدّل رخيصة في مواقف بعيدة عن البطولة والفداء.

نبحث عن عاقل مؤمن بقدسيّة الواجب العامّ لأنّه واجب عامّ. أمّا الأنانيّون والماكرون والخاملون الكسالي، فالتاريخ، لا محالة، سيزدریهم ويتركهم في زوايا الإهمال يقبعون.

تتجلّى الشجاعة بأروع مظاهرها، في الدفاع عن الحقّ - وإيثاره على الصداقة والقرابة - والذود عن الوطن، والمطالبة بما نعدّه نافعاً لأمتنا وللإنسانية جمعاء، ومناهضة أولئك الذين يعتدون على الضعفاء ويسلبون أموال السذج، ويغرّزون بالآمنين المطمئنين من الناس.

أين هو المسؤول الشجاع الذي يُشعرنا بأنّ الحياة المكتملة مشاركة حياة في إطار من القيام بالواجب بلا خوف ولا وجل ولا إهمال؟

في مضارّ القلق!

يصيب القلق غالبًا الدورة الدموية والقلب والغدّتين ومجمل الجهاز العصبي. قد يؤثّر في صحتنا السيّكو-جسديّة في العمق. ونحن لم نرَ إنساناً قضى من إرهاق في العمل بقدر ما شاهدنا أناساً يقضون إثر تشكيكهم وارتياهم.

القلق أشبه بشيطان خفيّ، ولكنّه كليّ السلطة والنفوذ، قادر على كلّ شيء. يسترقّ النصارة من الوجدانيّ والإيقاع من النبض. يسلب الشهية ويشيّب الشعر الذي لا يستحيل دومًا تاجًا للوقار وعلامةً للهيبة.

إذا أعشى القلق بصرك لا يسعك أن ترى روعة المغيّب. وإنّ أنت انتابك قلق شديد ممّا قد يكون وتساءلت ربّما عمّا كان، استغلق عليك الأمر بالكلّيّة. والمرجّح أنّ البكتيريا وسائر الكائنات المجهرية تجد طريقاً لها أسهل لدى أولئك الذين يقلقون كثيراً ويغتاظون غيظاً شديداً.

قلقنا يتأتّى غالباً ممّن يُفترض بهم أن يقتلعوا منّا كلّ أسباب القلق من مسؤولين وبعض أصحاب المهن الحرة، فتراهم هم أسباب القلق بالذات. هم دائسو الفقير ومنهم من اشترى الضعفاء بحفنة من الدولارات والمتسكّع بنعلين. لم يتزوَّج معظم هؤلاء المعرفة ولم ينهجوا نهج معلّميهم في المناقب والأخلاق فعشقوا

المادّة الجوفاء والجاه الأرعن. إفتقر الشعب وتراجع الحنان فازداد القلق. وليس هناك من يتصدّى لأسبابه لأنّ مفهوم الحرّيّة ما زال الرأسماليّة المتوحّشة وما إليها، حتى لدى معظم "المتّقين" الذين باتوا لا يقرأون ولا يكتبون ولا يقيمون في الحكمة ويلهثون وراء أصحاب النفوذ. مسبّبو القلق يصرون على جني أموال لا يستطيع الفقراء أن يحصلوها إلّا بالفوضى والإجرام. هل نسي المقتدرون أنّهم سيذهبون، بعد قلقهم على حياتهم ومقتنياتهم، في موجة الغضب السائد أسوةً بأبناء جلدتهم من صادقي القلوب؟

في المخاطر!

مخاطرتك في سذاجتك المزمنة كمخاطرتك في شكوكيّتك المطلقة. ونهْجُك في حياتك يقتضي محاولة إزالة كلّ خطر. من المهد إلى اللحد، تحظى بدعم ما أو بعزل ما بعيداً عن مخاطر الحياة. وإذا ما أخفقت في مسعاك انبرت حكومتك الرشيدة تساعدك بكلّ الوسائل المتاحة. هذا أمر طبيعيّ وليس عادياً. تعبر الحياة تجاربَ خطرة، وإذا ما بنى أحدهم أسواراً لمجابهتها أفضى به الأمر إلى إغلاق منافذ الحياة عليه. وإنّ خير مكان ننّخذُه لنا هو حيث نرقص على الحافة ونتنقل بين النقاط. فإيانا

إذا والخجل وشدة الحساسية لأنَّ الحياة كُلُّها تجارب. كلُّما عبَرنا
منها تجربة كان ذلك الأفضل لنا.

الضَّاحك ينطوي على خطر الظهور بمظهر المغفل؛
الباكي ينطوي على خطر الظهور بمظهر الانفعالي؛
بَسْطُ فِكْرِكَ وأحلامك أمام جمهور محتشد يوشك أن يُخسرك
محبَّته؛

الحبُّ في خطر أنْ لا نُحِبَّ في المقابل؛
في العيش خطر الموت؛
في الإيمان خطر الإخفاق؛
في عدم المخاطرة أشدُّ المخاطرات؛
في تجنُّب الآلام خوف على التلقين والشعور والتغيير والنمو
والحبُّ والحياة؛
وحده الإنسان الذي يخاطر ينعم بحريَّته...

معنى ذلك أنْ يتوب المشرذمون عن أحلام الشرذمة لأنَّ
الشرذمة أو حبَّ التقسيم انفعالٌ موسميٌّ مُعرض وادِّعاء إيمان
ما وتخلُّ عن ضرورة الوحدة التي لا تلغي التنوُّع والتحوُّل في
أعماق النفوس قبل مداد النصوص. لقد عَهدت بهذه الرسالة
الاستثنائية إلينا أكثر من سوانا فلنكنَّ نحن خدَّامها ولو عبر
المخاطر بعد أنْ نتنزَّه عن عيوبنا المزمنة.

حسنة الشدائد!

من شأن الصعوبات أنْ تحفِّزنا على تحقيق أفضل الإنجازات. تعترضنا عندما نفعلُ وجودنا فتستنهضنا وتجيِّش أنشطتنا وقد راتنا الدفينة. وعندما نعيش في فوضى عارمة يثير ذلك تفكيرنا. لذا، إنَّ بيئة يعصف بها الهرج والمرج هي هديَّة من السماء. كثيرًا ما حملتني شخصيًا الأحوال السلبية على الكتابة. والإخفاق الواضح في مقال ما أعادني إلى الآلة الكاتبة الليلة نفسها، قبل أنْ تبصر الصحيفة النور بساعات معدودة. كلُّ تعثرٍ يجعلني أوفر ثقة لأنني أرغب في المزيد تحقيقًا للأهداف ورفضًا لواقع الحال، وفي إقامة الدليل الساطع على أنني قادر على تحقيقها. ألا ينبغي أنْ نكنز ذكريات المصائب السابقة لنعزِّز على أنقاضها الطاقات البشرية الواعدة؟ الشدائد تجعل بعضهم ينكسرون كالعسكر المهزوم وبعضهم الآخر يكسرون الأرقام القياسية في انتصاراتهم على أعتى الجيوش. ومردُّ هذا إلى أنَّ الاضطرابات الكبيرة ترشدنا إلى فنِّ الابتهاج والفرح ولو تعويضًا، في حين أنَّ الاضطرابات الخفيفة كثيرًا ما تتسبَّب بالسخط والاستياء ليس إلَّا. الملامة، كلُّ الملامة، كامنة في الرتابة والسهولة والتسرُّع، وهي ما يجعل بعض أبناء الحروب يتوسَّلون كنوزًا ما من أسهل سبيل وأقربه فيفوتهم ما فيها، على

الأمَد البعيد، من فوائد حَقِيقَتِهِ تَفِيدُهُمْ قَبْلَ سَوَاهِم. وَالْمُؤْمِنُونَ
الْمُمَارِسُونَ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ يَبْتَذِعُونَ حَالَةَ اسْتِغْفَارٍ يَعْتَرِفُونَ بِهَا
أَنَّهُمْ آخِرُ النَّاسِ. يَعْبُرُونَ النَّسْكَ وَإِنْ فِي قُصُورِهِمُ الْمَنِيفَةُ حَتَّى
يَدْرِكُوا مَشِيئَةَ الْعَلِيِّ الَّذِي يَحُولُ صَحْرَاءَهُمْ جَنَاتٌ أَبَدِيَّةٌ.

بِالْفَنِّ نَنْتَقِ!

فِي غَرْبَتِي الْقُسْرِيَّةَ فِي بِلَادِ الْعَمِّ سَام، حَسْبِي "آه" مِنْ مُغْنٍ أَوْ
مَرْنَمٍ أَوْ حَتَّى مُؤَذِّنٍ، لِأُشَارِكَ فِي صَلَاةٍ تَرْفَعُنِي إِلَى مَا فَوْقَ
السُّحُبِ حَيْثُ الزَّرْقَةُ سَمَاءٌ مَاجِدَةٌ.

الْفَنُّ أَرْقَى لُغَةٍ تَفَاهَمُ بَيْنَ الْمَلَائِكِينَ، وَكَمْ يَحْتَاجُ وَطَنُنَا وَدُنْيَا
الْعَرَبِ إِلَى أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ عَدَدًا أَكْبَرَ مِنَ الْفَنَّانِينَ الْأَصِيلِينَ
لِيَزِيدُوا الْحَيَاةَ قُوَّةً وَرُوعَةً وَجَمَالًا يَجْمَعُ بَيْنَ الْأَدْيَانِ وَالطَّوَائِفِ
مَا فَرَّقَتْهُ السِّيَاسَاتُ الرَّعْنَاءُ وَلَوْ بِالْحَدِّ الْأَدْنَى!

كُلُّ شَيْءٍ يَزُولُ، إِلَّا الْكَلِمَةُ، وَرَنَّةُ الْقَافِيَةِ فِي مَسْمَعِ الضَّحَى، أَوْ
لَحْنُ أَنْشُودَةٍ بَيْنَ أَجْفَانِ الشَّفَقِ وَالْغَسَقِ. يَحُلِّقُ الْفَنَّانُ يُمَجِّدُ
الْخَالِقَ. لَقَدْ أُعْطِيَ مَوْهَبَةٌ أَوْ وَزَنَةٌ اسْتِثْنَائِيَّةٌ فَرِيدَةٌ فَتَدَفَّقَتْ مِنْهُ
وَزَنَاتٌ. هَذَا هُوَ الْخُلُودُ الَّذِي تَتَلَمَّسُهُ الْأَدْيَانُ. وَأَمَّا سِوَاهُ، فَلَا!

يَشْتَرِكُ الدِّينُ وَالْفَنُّ فِي الْقَضِيَّةِ نَفْسَهَا. فَالَّذِينَ يُؤَكِّدُ الْخُلُودَ

والمطلق، ويؤكد الفنّ الإنسان والخلق، وتؤكد الأخلاقُ الحرّية والخير. ألم تكن المعابد الغربيّة مثلاً المسارح الأولى التي تدعو إلى ترسيخ الحرّية والخير؟ ولكنّ علاقة الدّين بالفنّ ليست علاقة ابنِ عاق بوالديه أو علاقة شرطيّ مرور بالمُخالفين. في الحديث الشريف "أنّ الله يحبُّ إذا عمل أحدكم عملاً أنْ يُتقنه" و"الله جميلٌ يحبُّ الجمال" الذي هو من صفاته تعالى.

بين الإيمان والواقع!

إيماننا ومعتقداتنا تصنع واقعنا المَعيش. آمينُ بأنّ الحياة تستحقُّ أنْ نعيشها يؤازرك إيمانك في صنع الواقع. احلم بالشموخ تصيرُ شامخاً تمشي مشية الأسد وتنظرُ نظرة الزرافة. رؤياك هي وعد صادق بما يترتّب عليك أنْ تكشفه عاجلاً أم آجلاً.

إيماننا في بدء مهمّة مشكوك فيها هو ما يعزّز إمكانيّة فلاحها. نحن في واقع الحال ما نعتقد أنّنا في خيالنا وضميرنا. نؤمن بالسعادة فنشعر بها. وإنّ نحن ثابرنّا على اقتناعنا الراسخ بأنّ الأمور ستؤول إلى الأسوأ، ألفينا أنفسنا ماضين إلى الأسوأ. وإنّ ما نؤمن بصلاحيّته هو إمّا صالح وإمّا سيصلح في سياق من التجربة والاختبار الموصولين.

أجل، ينبغي ألاَّ نتنكَّر لضرورة ترتيب الحياة ولأهميَّة المحافظة على الصحة واللياقة البدنيَّة. الجسد من الأهميَّة بمكان وله حقُّ علينا خلافاً لما زعم الوثنيُّون والفلاسفة الإغريق. على أنَّه يترتَّب علينا أنْ نكون دعاة للحرية المسؤولة واحترام الذات والآخر. إحترام الذات مدخل إلى احترام الآخرين وليس العكس. أنْ نؤمن إذاً، من الوجهة الحيائيَّة، بالحرية هذه ونطلبها للآخرين، هذا هو مبرر وجودنا على هذه الفانية. أنْ نؤمن والآخر بحرية تبيان هويَّتنا وتمايزنا الإيجابي، هنا يكمن واقعنا الذي نحلم به. نتناقش بعدها في الوسائل وسيرورة الأمور وصيرورة الأوطان. ويبقى الحبُّ يحافظ عليَّ وينشئ في الآخرين عدلاً. على المرء أنْ يسعى فلا يعود مواطناً فرداً يخشى جحافل الآخرين. هكذا يملأ جميع المواطنين الزمان المعيش بالإيمان بالأبدية، فيبلغون بفضل أنواره لزوم العزوف عن الغزو وإنْ عبر دفع غزو الآخر عنا. إنَّ بدء السِّلْم الأهليّ رمي السِّلَاح، ولكنَّ السِّلَام يتجاوزه، قبلاً، بالإيمان الهادي الهادي.

لا بدَّ للفعل... من فاعل!

في صفحة صحيفة مرموقة قرأ خمسين فعلاً من أفعال الرغبة والتمني والمدح والذم والتعجب، ولا نقع على أيِّ فعل يشير إلى

أحد أفعال الإرادة التي نعرف أنَّ مراحلها - وإنْ هي تداخلتْ عملياً - هي التصوُّر ثمَّ التروِّي ثمَّ القرار ثمَّ التنفيذ. يتميَّز "الفعل" خصوصاً بأنَّه عمل. والفعل عمومًا يحتاج إلى فاعل!

النبات يساهم في العمل الإرادي. وهو يحشد الوقود للحيوان وتالياً للإنسان الذي يخوِّله ذكاؤه أنْ يتحكَّم في الحيوان. ولدى هذا رغبةٌ، ولو غامضة، في العيش.

إنَّ أهمَّ ما ينتظره شعبنا من المسؤولين أنْ يبذلوا جهوداً محسوسة وينجزوا ليس بالضرورة أعمالاً عظيمةً بل أنشطة تُرى ولو كانت متواضعة وآنيّة، ما لم يشاءوا، وقد توارثوا الحكم بالتعكيز على طوائفهم، أنْ تضع أسماؤهم ويجرفهم النسيان بعد أنْ بدوا مجردَ ظاهرة صوتيّة متهافئة حصراً على شؤون الأنا!

نحن أفعالنا! (في الجوهرد أو التكاؤن)

المرء في نشاطه وليس بتفتُّل عضلاته. نشاطه هو نفسه دون سواه. محكُّ المرء نشاطه أوَّلاً ليس إلّا. والأشياء التي يتخلَّى عنها ويتخلَّص منها تكشف عن ذاته أكثر من تلك التي يحتفظ بها.

إِنَّ كُلَّ نَشَاطٍ نَقُومُ بِهِ هُوَ إِمَّا نَجَاحٌ وَإِمَّا إِخْفَاقٌ فِي مَعْرَكَتِنَا لِنَمْسِي مَا نَبْتَغِي أَنْ نَكُونَ. حَتَّى إِنْ الْمَرْءَ يُعْرِفُ بِالْحَرِيِّ مِنْ خِلَالِ مَوَاطِنِ فَشْلِهِ. وَلَكِنَّا لَا نَسْتَجْلِي أَيَّ جَانِبٍ مِنْ طَبْعِهِ إِلَى أَنْ يَقُومَ بِعَمَلٍ مَا. إِنْ مَا نَفْعُهُ هُوَ أَهْمٌ مِمَّا نَحْنُ عَلَيْهِ خُصُوصًا إِذَا كَانَ الْقِيَامُ بِعَمَلٍ مَا هُوَ مِنْ صَمِيمٍ مِهْنَتِنَا. أَنْ نَعْمَلَ يَعْنِي أَنْ نَكُونَ. وَالَّذِي يَسْعَى لَانْتِرَاعِ صَيْتٍ حَسَنٍ بِالِاسْتِنَادِ حَصْرًا إِلَى مَا يَتَوَقَّعُ إِلَيْهِ وَيَصْبُو، عَبَثًا يَحَاوِلُ.

ثُمَّ بَوْنٌ شَاسِعٌ بَيْنَ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَتَشَارَكُ فِي نَشَاطٍ مَا وَالْبَطْلِ الَّذِي يَجْرُو حَيْثُ لَا يَجْرُو آخَرُونَ. وَمَهُمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ، فَإِنَّا نَحْكُمُ لَأَنْفُسِنَا أَوْ عَلَيْهَا بِالِاسْتِنَادِ إِلَى شُعُورِنَا بِقُدْرَتِنَا عَلَى الْعَمَلِ، فِي حِينٍ أَنْ الْآخَرِينَ يَصْدُرُونَ أَحْكَامَهُمْ إِزَاعِنَا بِالِاسْتِنَادِ إِلَى مَا سَبَقَ أَنْ قَمْنَا بِهِ. وَالْحَالُ أَنْ أَعْمَالِنَا تَحَدَّدُنَا بِقُدْرٍ مَا نَحَدِّدُهَا.

وَلِئِنْ صَحَّتْ هَذِهِ الْأَقْوَالُ فِي بِلَادِ النَّاسِ، فَإِنَّا نَرَى مُعْظَمَ مَسْئُولِينَا قَبْلَ سَوَاهِمٍ يَقُولُونَ الشَّيْءَ وَعَكْسَهُ أَوْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ شَيْئًا وَيَفْعَلُونَ مَا هُوَ خِلَافُهُ. ذَلِكَ أَنَّ مَصَالِحَهُمْ تَخْتَلِفُ بَيْنَ حِينٍ وَآخَرٍ. ذَاتُ سَوَانَا وَاحِدَةٌ عَمُومًا فِي حِينٍ أَنهَا - أَكَانَتْ فَرْدِيَّةً أَمْ جَمَاعِيَّةً - تَتَكَوَّنُ عِنْدَنَا مِمَّا نَأْخُذُ وَلَيْسَتْ قَائِمَةً فِي جَوْهَرِهَا بَلْ فِي أَعْرَاضِهَا وَلَيْسَتْ مُنْطَلَقًا لِشَيْءٍ يُذَكَّرُ!

فِعْلٌ وَرَدُّ فِعْلٍ!

الصَّالِحُونَ مِنَ النَّاسِ فَنَّةٌ بَلَغَتْ الْحِكْمَةَ عِبْرَ الْإِخْفَاقِ.
فَالْحَيَاةُ تَجَابِهَنَا كُلَّ يَوْمٍ بِمَشَاكِلَ جَدِيدَةٍ تَقْتَضِي مَعَالِجَتَهَا، مَا
يُضْطَرُّنَا إِلَى تَصْوِيبِ مَخْطَاطَاتِنَا الْقَدِيمَةِ وَفَقًّا لَهَا.

مَا يُمْكِنُ أَيُّ بَشَرِيٍّ أَنْ يَفْعَلَهُ بِأَحَدٍ مُوََاهِبُهُ أَنْ يَحَاوِلَ تَطْوِيرَ
نَظَرَتِهِ إِلَى الْأُمُورِ بِنَاءً عَلَيْهَا، بَحِثُ يَتِمَكَّنُ، بِفَضْلِ إِخْفَاقَاتٍ
مُتَكَرِّرَةٍ مِنْ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِمَّا غَابَ عَنْهُ فِي الْمَاضِي. وَالثَّابِتُ لَدِينَا
أَنَّ ثَمَّةَ مَشَاكِلَ جَدِيدَةٍ فِي الْحَيَاةِ تَفُوقُ الْمَشَاكِلَ الْمَالِيَّةَ خَطُورَةَ
وَقَدْ اعْتَرَضَنِي مِنْهَا الْكَثِيرُ! "تَحَطَّمَتْ" حَسَابَاتِي وَاسْتَحْطَمَ
مَجْدَدًا. أَمَّا تَحَطُّمُ الْقَلْبِ فَهُوَ أَشَدُّ خَطُورَةَ بِأَسْوَاطٍ!...

الْحَيَاةُ الْمَبْنِيَّةُ عَلَى رُدُودِ فِعْلٍ هِيَ حَيَاةٌ عَبُودِيَّةٌ مِنَ الْوُجْهَتَيْنِ
الْفِكْرِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ. وَعَلَى الْمَرءِ أَنْ يَسْعَى جَاهِدًا مِنْ أَجْلِ حَيَاةٍ
فِعْلٍ وَلَيْسَ حَيَاةً رَدًّا فِعْلٍ. فَلَيْسَ مِنَ الْمَحَبَّةِ أَوْ التَّضْحِيَةِ أَنْ نَعْفَ
عَنْ تَقَاضِيِ أَجْرِ مَنْ أَحَدِ الْمِيسُورِينَ لَغَرَضٍ مَا مَشْبُوه. هَذَا
وَاجِبٌ ضَرُورِيٌّ. فَإِنَّهُمَا تَقْضِيَانِ بِأَنْ نَتَعَاشِشَ مُتَكَافِلِينَ مَعَ سَوَانَا
فِي سَبِيلِ حَيَاةٍ فَضْلِيٍّ. أَنْ يَصْمَدَ جَسَدُ الْمَجْمُوعِ بِفَضْلِ انْتِبَاهَانَا
وَرِعَايَتِنَا وَاسْتِشْرَافِنَا الْمُسْتَقْبَلَ هُوَ مَقْيَاسُ صَدَقِ الْقُلُوبِ
وَاسْتِنَارَةِ الْعُقُولِ. وَشَعْبُنَا، فِي عَمَقِ أَعْمَاقِهِ، مُتَجَذِّرٌ فِي انْتِمَائِهِ
الْوَطَنِيِّ مَهْمَا أَثَارَتْ هَاتَانِ اللَّفْظَتَانِ أَحْيَانًا مِنْ خَوَاطِرِ مُغْرَضَةٍ
مِنْ "أَعْلَى الْمُسْتَوِيَّاتِ" وَهُوَ قَلَمًا يَحْتَاجُ إِلَى شَهَادَةِ حَسَنِ سُلُوكٍ
أَوْ فَحْصِ دَمٍ فِيهَا مِنْ أَحَدٍ!

المسؤول الحقيقيُّ يبادر، يفعل... لا من باب التمنيِّ أو التهرُّب. فأين مسؤولونا من ذلك؟ وما الحيلة وقوَّة الأشباح أن توحى بأنَّها قائمة؟ إنَّها توهم النَّاس طويلاً بأنَّها واقع الحال طبيعيّاً وهي كذلك في مجتمعاتنا البائسة.

العملُ والحبُّ!

كُثُرٌ من أبناء جلدتنا يرون أنَّ عملهم عبء شاق ورتيب يقع على عاتقهم. ذلك أنَّه، أساساً، مصدر عيشهم، ولكن، حسبهم أن يقوموا به بدافع الحبِّ في معزل عن كلِّ تنافس مرضي أو سعي وراء الكسب السهل والسريع، ليشعروا بأنَّه مصدر فرح وسعادة لهم.

الواجب الوظيفيُّ ظلَّ جليديَّ يُجمدُ العامل، فيبقى على حاله ما لم يركنْ إلى حرم القلب. الأمُّ الرابضةُ في حنايا أفئدة أنجالها أو الأب المعتقد القلب بعطر حنان نشره على طلابه، أسطع دليل على تلك الحقيقة الحقيقية. فعندما يكون معطفك الدافئ قد حبكه إنسانٌ على قاعدة الحبِّ الهني، يتبيَّن زاهياً متعدِّد الألوان كقوس قزح. ينظر بعضهم إلى النظام في العمل كأنَّه رتابة ممّلة. أمّا

الحكيم فيحوّله نهجاً يحرّره شيئاً فشيئاً للانطلاق في الأجواء الرحبة.

ينبغي أن يكون ثمّة متحمّسون لكلّ شيء في هذا الكون المأزوم: أن يتوافر فيه متعصّبون للسانٍ يتميّزون به، أو عادات حميدة يفاخرون بها، أو تدفّق لا حدّ له من الملكات التقنيّة والقدرات اللوجستيّة وربّما أيضاً نظرة ما إلى جماليّة الأشياء وأسرارها الدفينة، أو انجذاب سحري إلى أسطورة ما...

مردّد نجاح عملٍ ما إلى بذل كدّ اليمين وعرق الجبين اللذين ينطوي عليهما بكلّ طيبة خاطر. أعطني إنساناً يغنيّ خلال قيامه بعمله أعطيك معجزات مثيرة للعجب! الانسجام مع أجواء العمل ينبيّ بطاقة عالية مقترنة بمنتهى التفاني ويجعل السعادة تنبثق منه كما تنفث البراعم من أزهار الربيع.

ركن العمل هو ما يلزم الجسد القيام به، وركن المتعة المفيدة هو ما ليس الجسد ملزماً القيام به. وعندما يتعانق العمل والحبّ، يمكننا انتظار ما يُدهش العالم.

سبق أن رفض فيلسوف الوجود والحبّ المتحرّر جان بول ساتر، تسلّم جائزة نوبل للأداب عام ١٩٦٤، لإيمانه الراسخ بأنّ الحرية المطلقة التي يدعو إليها تتناغم مع مضامين فلسفته الداعية إلى التفكّك من كلّ القيود، أيّ أيّ التزام يقيدّها، أكان ذلك حصوله على الجائزة أم الاقتران الرسمي بحبيبته!...

